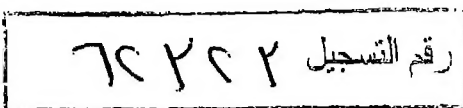
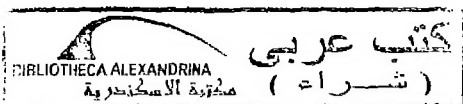




الْبَيْتُ الْفَصَامُ



مطبوعات مكتبة مصر

البيت الصامت

رواية

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - القاهرة

دار مصر للطباعة
توزيع مكتبة السخاوي وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - القاهرة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢



إنها لا تدري لماذا تذكرت هذا اليوم .. عاد إليها بتفاصيله مع أنها كانت موقنة أنها نسيته .

وعندئذ أحست بالخوف ..

كانت وقتها في الحمام .. البخار والدفع يصنعان حولها جوا مسحورا ..
برائحة صابون معطر وصوت أغنية مع نكهة أخرى في قميصها المعلق على
الشماعة ..

إنها ستذهب إليه بعد خمسة أيام .. وتأكد في خاطرها عدد « خمسة » حين
ألقت نظرة على كفها اليمنى : ولد لها أن تعد أصابع يدها .. « خمسة » في
إحداها خاتم الخطبة .. وخمسة أيام ثم تنتقل إلى بيت زوجها ..

وألقت نظرة على قميصها المعلق .. كان متدليا في التهديل المألوف للحرير
وفي لون البنفسج الفاتح .. ونهضت من فوق الكرسي المنخفض واتجهت نحو
القميص كطفلة تلعب .. تتفحص كل شيء في خلوتها حتى ولو عرفته من
قبل .. وأكبت على قميصها ودست أنفها فيه ..

فيه رائحة مزدوجة التقى فيها شيان .. رائحة جسمها ورائحة عطر ..
وأغمضت عينها ووضعت خدها على القميص وقد استندت بكفها إلى
الحائط في منظر خاشع والحظة « تجرد » طويلة عميقة أعمق من المألوف حتى
شعرت كأنها ترقب فتاة أخرى مع « سلامة » وهما في امتزاج متكامل .. من
حولهما رائحة الشوق والحب وكأن « سلامة » حاضر بلحمه ودمه ..

أخذت نفسا طويلا ثم أفادت على الذكرى المنغصة .. فلماذا تذكرت —
فجأة — هذا اليوم ١٩ بعد أن مرت عليه عشرة أعوام على الأقل وعاد إليها
بتفاصيله ..

ورفعت خدها عن القميص ووقفت منتصبه .. السقف يحجبه البخار
والأواني ملقاة بلا نظام .. وأخذت تجفف جسمها محاولة أن تسترد سكينه
قلبيها .. غير أن السكينه لا تعود بالبساطه التي طارت بها .. فأسبلت عينها
واسترسلت في الأحلام ..

أحلام بعضها في سرير العرس وأخرى تدخل تحت كلمة كابوس ..
ومصدرها ذلك اليوم ... لكنها — وكأنما كان ذلك بفعل الماء الدافئ — ألقت
نفسها أكثر راحة وأميل إلى الهدوء .. فعاد النسيان أكثر كثافة ..

* * *

وعندما دخلت غرفتها لتنام ألقت كل شيء حولها يتحدث عن الرحيل دون
أن يتكلم .. فبدا لها هذا السرير الذى طالما سقطت بها ألواحها أغلى من سرير
ملكة .. ستحتله أختها بعدها وكم هى فرحة بهذا ، وكانت إلى جوارها تغط في
النوم ولكن « درية » لم تنم بعد .. ترى في الضوء الخافت الذى يؤنس الحجره
فرشا جديدة مكدسه على وشك أن تنقل .. وأشياء صغيره مربوعه ومحزومه
ككائنات بلا أرجل ..

فأدارت الخاتم في أصبعها .. نخيل إليها في هذه الوهله أن أى مكان في الدنيا
ليس أجمل من هذا المكان . خصوصا الليله .. ورأت أسمها محفورا بمسمار بيد
أخيها الصغير على الحائط الملاصق للفراش بحروف بدائية لابن ست سنوات ..
تذكر كوفى عليه بعلقه من الأم لكنها هى شخصا كافأته عليه بقبله ..
أحست أنه يؤكد انتسابها إلى الأصل .. وعادتها صورة « سلامة » بطوله

الفارع ووجهه الأسمر المتعطش ، ونظرتها التى تفحص كل شىء .. نظرة جميلة وخفية .. تسبح فيها وتذوب على رأى إحدى زميلاتها فى المدرسة .. إنها ستنقل إليه بعد خمسة أيام .. يوم الخميس القادم .. وتأوهت كالمسوعة .. فقد كان هذا اليوم الذى ذكرته يوم الخميس أيضا ..

فقد كانت خارجة من المدرسة بعد دراسة نصف يوم .. فرحة بيوم الجمعة .. « أف .. أف » وتساءلت : لماذا يلح عليها كذبابة .. أنها تريد أن تنام .. وأن تستمتع بصوت أبيها وهو ينادى اسمها منغما فى الصباح لتقوم فتجهز الفطور .. تريد أن تستمتع بكل شىء فى هدوء أو صخب .. وأن تضحك عندما تتداعى بها ألواح السرير فتجد نفسها تحته فى وضع مضحك ..

لكن ذكرى هذا اليوم تخيفها .. وبمرور الوقت أخذت صورته تكبر .. كان يقتات من طمأنيتها فيزداد ظله حتى كاد يغشى قلبها وعينها .. فى صبيحة اليوم التالى أخذت تحملق فى أمها .. كانت ساهمة تماما .. مخلوق يجتاز معركة نفسية ومادية ويودع كبرى بناته .. تجيب عن كل شىء بالصراخ .. ولذلك أقسم زوجها ألا يتحدث إليها إلا بعد خروج العروسة .. وسمعت « درية » هذه الكلمة .. فعزمت على أن تحدث أمها فى أمر الخروج .. لكنها عادت فعضت سبابتها .. ماذا تقول لها ؟! ماذا تقول لأمها ؟! فى بعض الخلوات ألقت إليها النصائح المألوفة تلك التى تسلمها كل أم لابنتها قبل الزفاف كصندوق من عهد حواء فيه السحر أو الخديعة وكلمات سبقت عهود الحكماء ..

لكن « درية » تحس بحاجة أخرى جديدة .. تريد أن تحدث فيها أمها ..

وها هو ذا يوم الخميس قد أزف .. لم يعد يفصلها عنه إلا يومان اثنان ولا بد لها من أن تسمع من أمها كلمة ..

وصممت على ذلك فصارت تتبع خطاها في المسكن مثل ظل أخرس .. خفيف الحركة ناضج الأنوثة منحه القلق بريقا في العينين مثل بریق مرآة لا تعكس إلا الفراغ .. وكان الجميع ينظرون إليها بشفقة حية على أنها فتاة يعز عليها أن تفارق بيت والديها ..

وفي مساء الثلاثاء أتى « سلامة » .. دخل يختال بعوده الطويل وكفيه العريضتين وعلى فمه ابتسامته غير المبالية .. حليق الذقن غزير الشارب .. يرتدى حلة جديدة .. وقد اصفرت أسنانه من الشاي .. وأحست الفتاة حينما رآته كأنه ملاذها .. شعرت أنها تريد أن ترقى بين ذراعيه وتشكو إليه .. لكن هذا الخاطر ما لبث أن تلاشى بعد ما بدا سخيلا للغاية .. وعلى مقربة من الفرش المكدسة جلس العروسان .. نظر إليها من خلال أهدابه نظرة رجل سهر طويلا ، في عينيه القويتين تعب طارئ .. والتقى بصرهما على وسادة فوق كومة من التنجيد .. فابتسم بعدها وقال لها وهو يشير إلى الوسادة :

— على هذه سنتفق في كل شيء ..

كادت الدموع تنبثق من عينيها .. لكن ابتسامة كبيرة ولدت على فمها .. وشهقت ضاحكة شبه باكية ولم تتكلم .. ثم خافت .. فخطفت نفسها خطفا وقامت إلى الخارج حيث التقت مع أمها التي تحمل للعريس شرابا دافئا .. أما هي فقد ذهبت إلى الحمام حيث وقفت تتأمل لا شيء !!

وعادت خارجة فالتقت بأمها .. نظرت إليها الأم نظرة باسمة .. فيها إيجاز لتاريخ امرأة ..

وعندئذ عادت « درية » .. وجلست إلى جواره وهو يرتشف الشاي

ويقطع إحدى الفطائر ..

— لماذا لا تأكلين .. شاركينى ..

هزت رأسها وأطرقت وردت فى هدوء :

— لست جائعة ..

قال باسم :

— أشكر لك هذا الإطراء .. وجودى يغنيك عن كل شيء ؟! .. شكرا

عندما تكونين معى فى بيتى .. فى بيتك .. سأفعل نفس الشيء .. سأشبع

عن الدنيا .. إلا أنت ..

أحست أنها تتنفس بارتياح .. صدرها يتسع كمروحة كانت مقفلة من

قبل .. جرعة من الحنان والحنو فى وقت واحد فياليتها تستمر ..

سرت رعدة فى أوصالها فأحست أنها على وشك الرعدة .. طحنت

أسنانها السفلى بالعليا وهزت رأسها وهى تنظر إليه .. أما هو فكان ساكن

الريح .. هادئا .. وظلت نظرتة تسرب من بين أهدابه .. نظرة جارحة كأنه

تكشف الغطاء عن أى شيء ..

وأحست أنها فى حجم القطعة .. شجرت بالضالة ولأول مرة على هذا

النحو .. وكان من الضروري أن تكون أمها إلى جوارها .. لكن .. ليست كل

التجارب تشارك فيها الأمهات .

بلى على العكس لاحظت أن أحدا لا يدخل عليهما ..

لكنها على الرغم من كل شيء أغمضت عينها وأسلمت كفها ليدى حين

أمسك بها بكفه الكبيرة الطرية القوية .. وكانت شفثاه تتلمظان كأنه فرغ توا

من احتساء شراب .. وخداه المملوءان باللحم فى شبه انتفاخ يرق فوقهما نور

الحجرة .. وشاربه العميق السواد يوائم شعره الفاحم اللابد على رأسه كأنه

قطعة من القار ..

وعندما أخذت يده تعبت بالخاتم في أصبعها شعرت بالخوف .. حركه
مرتين حتى منبت الظفر ثم أعاده إلى حيث كان .. وفي المرة الثانية قال لها
بصوت هامس :

— درية ..

— نعم ..

— متى ؟!

— متى ماذا ؟ « وكانت تعرف عن ماذا يسأل » ..

— متى يوم الخميس ؟

فهتفت بصوت تشوبه البحة عادة عندما ترتفع درجته وقلبها يخفق :

— صحيح .. متى ؟

ثم تجمد الموقف في نظرهما كصورة على شريط .. صورة مسطحة لا عمق
لها .. وقفت العجلة التي تديرها فبدت بلا حياة ولا عمق ولا سحر ، كأنما
شلها الخوف ..

في اللحظات التي سبقت خروجها من بيت والديها إلى بيت زوجها كانت مقتنعة أنها عاشت في أوهاام .. عذبت نفسها .. فذلك الخاطر الذي خرج من القمقم كعفريت قد حدثت به أمها في حينه على نحو ما يوم الخميس .. يوم كانت ذاهبة إلى منزل السيدة زينات صديقة أمها .. ترجع لها فستانا استعارته الأم لكي تفصل مثله .. ومرت على أبيها في شارع السكة الجديدة في دكانه الذي يبيع الخردوات .. وأخذت منه ريالاً من الفضة لتوصله لأمها .. ثم وضعت في جيبيها المحاذي لفخذها .. ثم واصلت سيرها وفستان الست « زينات » ملفوف في جريدة مشت تقرأ فيها .. وصورة في صفحة الرياضة للملاكمة — يومئذ — شغلت بالها .. رجلان شبه عاريين في يد كل منهما قفاز جعل منظر اليد — في نظرها — مثل خف الجمل .. وكل منهما يكيل الضربات للآخر .. وتحت الصورة كلمات كبيرة أبرزها كلمة « انتصار » .. وتساءلت يومئذ .. « هل هذا انتصار ؟ » ..

كانت تقرأ ويدها على الريال .. ونصف وعيها للطريق .. كانت بنت اثني عشر ربيعاً .. نعم .. لا تزيد ..

وكانت فرحة بهذه المهمة .. إنها ستري العمارة الجديدة التي سكتها السيدة « زينات » بعد أن أثمرى زوجها في التجارة وستري الأثاث الجديد .. والموقع الساحر في الطرف الآخر من المدينة ..

في جيبيها الأيسر على مقربة من فخذها وضعت ريالاً من الفضة وفي جيبيها

الأيمن حمص ملأت به جيبيها من « مقلى الحرمين » بجوار دكان والدها .. ملأته بلا مقابل .. كانت كلما قالت صباح الخير أو مساء الخير لصاحبها الطيب الحاج « يحيى » يملأ لها جيبيها بما تشتهييه .. ويومئذ ضحكت حين كانت تشتهي أن تأخذ ولكنها خجلت من أن تحييه .. ولكن عينيه العسليتين وقعتا عليها في الشارع .. وناداهما .. كطفل يتنادى صديقه .. فقد كان محروما من الأولاد وملأ لها جيبيها بيد يعلوها الوشم وهو يقول لها : « خذى بلا ثمن يا درية .. دون أن تقولى حتى صباح الخير يا عم » يحيى « .. خذى .. لا يهملك » .. وأحست أنه يملأ جيبيها حبا .. أحست أنه يفعل مثل الأب .. ويومئذ سألت الله : لماذا لم يعطه ولدا .. ثم .. نسيت . ومشت تأكل الحمص .. وتعبث بالريال .. وتحملق في شبه قلق في صورة المتلاكمين .. تملأ أنفها ورأسها رائحة شارع السكة الجديدة بضجيج المألوف والرفيفين الذين يسحبون نساءهم وأطفالهم في طريقهم إلى ضريح « البدوى » ويزحمون مرور العربات ..

حتى إذا ما انسلخت عن هذه المواقع ووقفت للمرة الأولى أمام ما يسمى عمارة أخذتها الروعة .. كل شئ فيها مرتفع رائع .. « يا اه » .. كان ذلك يوم الخميس ..

واليوم خميس ..

ولم يبق إلا ساعة وترتحل .. بدت في عين « السيد » أخوها الصغير نظرة عتاب .. فلماذا ستركهم ؟ .. إنه يعلم أنها ستزوج .. لكن لماذا تتركهم أيضا ؟ .. ملكية ما قبل الأديان والنظم الاجتماعية .. إنه يريد أن يدعها .. وقد غطى اليوم اسمها المنقوش على الحائط بورق الشيكولاته الملون على أنها زينة الفرح على حد قوله .. لكن كل هذا لم يكن يشغلها .. إنها تحملق في أمها ..

إنها تذكر ما قالته لها عقب عودتها من عمارة الست « زينات » .. تذكرته الآن بالحرف الواحد .. أين النسيان .. هل هذه الطريقة سيحاسبنا الله !؟ أن نتذكر كل شيء يخلق من حياتنا « سوقا » تملؤها النداءات والروائح والجنون .. لكن .. لسنا نتذكر إلا ما نحن في حاجة إليه .. بل وأقل ..
— آه يا ماما .. كنت أريد أن أقول لك كلمة ..

— تعالى .. واحضنيني ..

قالتها بخنان وتعب وهى تبحث عن ريقها ..
ووقع بصر « درية » على الصدر الناحل وعلى الأخدود الذى يشقه ..
ذلك الذى طالما انكبت عليه وهى طفلة .. فشبهت بالبكاء ..
— أنا .. أنا خائفة يا ماما ..
— آه كلنا نخاف يا بنتى ..

وكانت يدها تمر على ظهرها من خلف .. ونفسها مضطرب يكتم شهيقا يملؤه بالبكاء ..
— قولى كلمة .. تطمئننى يا ماما ..

— إنه .. شاب طيب .. إنه قوى تحبه النساء وستحبينه من أول أسبوع ..
وههمت بصوت فيه ضحكة وكلام وذكريات ثم ما لبثت أن انفصلت عنها لتقوم فتلبس ملابسها .. وفى تلك اللحظة رنت ضحكة عبقة تبعها زغرودة من فم السيدة « زينات » صاحبة أجمل عنق فى نساء جيلها وأصفى لون وأعظم حظ وألين حديث ، وكأنما كان ذلك إيذانا بفتح المجال فامتلا البيت بالزغاريد .. ثم أخذت « درية » فى ارتداء ملابسها البيضاء ..

كان البيت الجديد يقع في شارع على مقربة من الطريق الرئيسى بين القاهرة والإسكندرية .. غير كبير الاتساع لكنه حافل بالحركة .. خصوصاً بالنهار .. لكنه بالليل من الشوارع التى تهجع باكراً .. فليس فيه أماكن سهر ولا دور سينما ..

لذلك عندما انطفأت الأنوار على واجهة البيت .. تلك التى كانت تعلن عن الفرح استرد الشارع طبيعته الأصلية .. واستطاعت « درية » أن تراها لأول مرة بالليل وهى فى نافذة المطبخ .. قبل أن تدخل إلى حجرة النوم للقاء الأول وهى الآن فى قميص من الصوف وقد خلا البيت من الضيوف منذ ساعة وتقدمت خطا الليل ..

ورأت زوجها وهو يقفل باب الحجرة عليها فأحست بعزلة غريبة .. عزلة تكاد تسلمها لدوار ثم إغماء غير أنها تماسكت .. وأيا ما يكون وضعها فإن الغريب فى الدنيا حتى اليوم أن تكون المرأة فى موقف المنتظر .. لا تقول الكلمة الأولى ولا تبدأ بأول لمسة .. حتى اللاتى تزوجن عبيدهن فى القرون الغابرة وقفن نفس الموقف .. لا بد أن تمتد يد الرجل نحو الوردة .. برعما كانت حديث العمر أو تم تفتحها حتى رأى الناس ما بقلبها كله ..

وتحسست يده خد عروسه .. ثم شعرت هى بجسمه الطويل يزحم الفراش .. جاوبته وهلة وهى منكشمة ثم قررت شيئاً .. قررت أن تستسلم للموج فأمواج الليلة هى التى ستلخص القصة فتعلقت برقبته وأغمضت عينها .. لحظات لم تكن فيها الصور المشهورة .. مطلقاً .. حضرتها فيها ذكرى أمها وهى تلد شقيقها « السيد » .. آلام مخاض .. ثم سؤال عن النتيجة ولد أو بنت .. فهنا يقال أيضاً بلا حروف ولد أو بنت ؟ .. ومع هذا كله والدنيا برد ، عرق ورائحة كنفس التى شمتها فى الحمام .. ثم أرجوحة .. سريرها يهبط

بها ويعلو كأنها تترنخ .. ثم فترة انقطع فيها الشعور تقريبا .. لم تعد فيها تحس بشيء .. تحلم أنها تحمل شيئا ثقيلا .. في هذا الحلم القصير حلمت أنها مغمى عليها .. وأن إنسانا ما يعيد إليها حسها بشيء يحكه في أنفها .. لم يكن إلا « بصلة » هكذا في الحلم .. وفتحت عينها على النور الخافت فرأت وجه « سلامة » مسامتا لوجهها وهي في فراشها .. فصرخت بلا إرادة .. كانت رائحة البصل تملأ أنفها حتى الآن ولو أنها شمته في شبه حلم .. ثم دفعته عنها بقوة وبكلتا كفيها .. وعند ذلك جلس عند قدميها .. كانت في هذه اللحظة مثل الأسيرة .. في نفسها خوف شديد ..

وهناك رجل نصف عار يجلس في الفراش .. مطرق .. وهي الآن كامرأة استردت نفسها من قرصان .. هكذا كان إحساسها ساعتئذ .. مع اشمئزاز وخوف .. كانت تريد أن تفرغ معدتها من الطعام .. ما لها تشعر بالذل والخوف والميل إلى القتال كأنها ليست في غرفة عروس .. كأنها مغتصبة .. وكان وجهها مغطى بذراعها .. ومن تحت الذراع نظراتها تتسرب إلى زوجها الذي ألفته جالسا عند قدميها كما كان .. وظلت هي صامته عن عمد فقد كانت تريده هو أن يتكلم .. لماذا هو صامت ؟! .. وعادت إلى أنفها الروائح المخلوطة .. وأحسست بالدوار من جديد .. شعرت كأنها تصعد سلما أعلى من أعلى سلم صعدته في حياتها في عمارة السيدة « زينات » .. وعاودتها رائحة البصل فأفاقت ..

عندئذ سمعت صوته ينادى باهتمام :

— درية ..

نطق اسمها مخطوفا .. فنهضت جالسة .. وكان معنى جلوسهما أنهما صارا وجهها لوجه .. فقام هو وأضفى على الحجرة مزيدا من النور .. وجلس في

وضع جديد. على حافة الفراش ..
كان يبدو غير طبيعي .. خداه منتفختان وشعره منفوش ونظراته الجارحة
تتأرجح بين الأسى والسخرية .. ينظر ذات اليمين وذات الشمال كمن يفتش
عن شيء ثم ناداها :

— درية ..

نطق اسمها بنفس الطريقة ..

— نعم ..

لم يكن في ردها خوف .. كان جازما حاسما قصيرا واضحا ، وليست
تدري لماذا .. كأنما كانت تتعجل في معرفة ما هناك .. فأولاهها ظهره وهو
جالس على حافة الفراش ثم نظر إلى الأرض ثم قال متلعثا :

— إني .. وجدت .. أقصد .. يعني ..

ثم صرخ بأعلى صوته بعد أن استدار إليها :

— لم أجد شيئا .. إنها مصيبة ..

فصرخت بلا صوت .. ملأ الصراخ أذنيها حتى صار طنينا مع أن صوتا
ما لم ينبعث من فمها .. وظل فمها مفتوحا على هذه الصورة والدموع
تنسكب في صمت .. ليس هناك إجهاش ولا نشيج ولا همهمة .. وظل هو
يعض شفتيه على التوالى ، حتى صارتا في لون الكبد ..

— هل كنت تحبين !..

وهزت رأسها بسرعة نفيا .. وعندئذ انبعث صوت البكاء كاستهلال
المولود ينبىء بتحريك النفس .. وقالت بينها وبين نفسها : « يا ليت » .. غير
أن هناك نوعا من القضايا لا يحلها النقاش .. فتركها وخرج صامتا .. وأقفل
الباب وراءه بعنف .. وطالت غيبته فأحست أنه سينام في حجرة أخرى ..



(البيت الصامت)

وبعد ساعة من الزمن أطفأت بقية الأنوار .. ثم فتحت شيش النافذة ووقفت من وراء الزجاج .. تتقاذفها الأفكار بطريقة الموج الذى عاتته منذ قليل .. وتكاثف نفسها على الزجاج فعملت لنظرها دائرة بكفها .. وفطنت أخيرا إلى أنها فى الدور الأول .. وأنها تطل على ميدان .. وأن الشارع مرصوف بأحجار البازلت الرمادية المستطيلة .. وأن فى نهاية الميدان يقع سجن المدينة أمام عينها هناك .. بأسواره وأسلاكه ونقط المراقبة فيه .. وأن الطلقة النارية التى سمعتها منذ قليل قبل أن يغادر .. من ١٩ زوجها ؟ .. قبل أن يغادر الحجرة كانت من تلك الطلقات التى يرسلها الحرس بالليل ..

ثم أخذت تفكر .. ماذا لو فتحت هذا الشباك ثم وثبت إلى الأرض مقلوبة .. ليتها أحبت .. إن أمها شريكة لها فيما حدث .. فمنذ عشر سنوات كان الأمر ممكنا أن يشرح .. وحتى ليلة أمس أيضا ..

لكن .. هل هناك شئ يسمى النسيان ؟ شعرت « درية » أنه أحيانا يكون عملا إراديا وعندما يكون النسيان إراديا فإن التذكر يكون صدمة .. وعضت أناملها فى ندم .. بكّت وأنفاسها ترسم على الزجاج دموعا .. وتمنت ألف مرة لو عاد الماضى .. وحملت فى النوافذ البعيدة لذلك البناء الخشن .. كلها صغيرة مظفأة سوداء .. نوافذ سجن !! ثم أحست بالرتاء العظيم لبعض قلوب تنام هناك .. هى على التحديد قلوب الذين لم يرتكبوا جريمة .. أولئك الذين دخلوا ظلما إلى هذه المقبرة ..

ثم .. تصورت أنها تنال جزءا حقيقيا على شئ فعلته .. فلماذا عساها كانت الآن تعاني ؟ .. ندم مطهر .. يكسر من شوكة الغرائز ..

وعادت إليها رائحة البصل .. والآجر والأسمنت والحمرة .. ودخان خشب أشعلت فيه النار .. ووقفت حائرة عند عتبة الباب .. هل تذهب

إليه ؟! تقول له .. ماذا ؟! .. وعندئذ شعرت بحاجة إلى ضحكة . إنه يقظ ولن ينام .. وفي الصباح سيكون شيء ما .. لكن .. هل ستظل واقفة هكذا حتى الصباح ..

إنها تحس بالتعب .. ومشت نحو السرير .. لكنها أحست فجأة بعدما وصلت إليه أنه ليس من حقها أن تصعده .. لماذا تنام فيه ؟! .. لقد فرش لاثنين بشرط مفهوم دون أن ينطق به أحد .. وقد اختل هذا الشرط ..

وألقت نفسها ترقد على الأرض المفروشة .. فأحست برطوبة البلاط .. لكنها استعذبتا .. حتى راحت في النوم .. فلم تستيقظ إلا على شعاع يسقط على خدها وعلى فتحة باب الحجره ووجه « سلامة » يطل من فرجته — وقد أمسك بأكرته — بعينين متفتحتين وشعر منقوش ..

نهضت من رقدتها وجلست تنظر إليه ونظر هو إليها دون أن ينبس أحدهما بكلمة ..

ثم ما لبث أن أغلق الباب عليها وانصرف ..

٣

قرر هذا اليوم ألا يفتح الباب لأحد وقد أنهى إليها هذا القرار بعد ساعة .. راعها أن تراه وكأن علامات المرض بادية عليه ، أما هي فقد رأت نفسها من خلال أحزانه .. وبدأ جرس الباب يدق وناس يهتمون ثم يأسون ويرجعون .. شعرا معا في وقت واحد أن وجوه الناس أفتطح شيء يرى اليوم .. أمسك بيدها فانسحبت معه .. وفي حجرة أخرى جلس الاثنان في جو معتم غير واضح .. وجهان قلقان .. ورجل يستفسر وهو مقتنع مقدما بأن كل ما يقال بهتان ..

وعادت تتذكر الحقائق .. وودت في صميم نفسها أن تبوح بها لكنها كانت واثقة أن الكذب الموزون أقرب إلى التصديق من الصدق المشوش .. وهي غير قادرة على أن تقدم كذبا مرسوما ببراعة .. الكذب الذي عندها فجع لن يصدقه بسهولة رجل عاش في المدينة وعمل في القطارات وقرأ الوجوه وكل شيء منه يوحى بأنه قد جرب ، والوعود أرخص هدية تقدم في الأزمات .. ولذلك عندما جلسا على كرسيين متقابلين ونظر إليها طويلا وقد ملأ الانفعال وجهه المكور وسألها عن الحكاية .. صمتت .. وعاودها فلم ترد عليه .. أحست بشبه إلهام أن التذلل لن ينتج وأن تصديق ما ستقوله رهن بالقوة التي ستسلح بها .. لكن .. بماذا ستسلح ؟ تسلحت أولا بالصمت ، حتى ثارت ثائرتة وقام فhezها من كنفها وأمسك شعرها وشده وطوق رقبتها بكفيه كأنه يهم أن يخنقها .. كانت الغريزة وجدها هي مصدر

إلهامها .. وبنفس الطريقة التي عرفت بها المرأة الأولى معنى نظرة الحب أو التخاذل وفسرتها كانت هي تراقب موقفها .. ويدق ناس جرس الباب وينصرفون .. وهى فى مكانها كتمثال متمرد .. تغرق وجهها بدموعها وتدعه يحف .. ويقوم هو فيدخلن بعيدا ويعود تفوح منه نكهة التبغ ورائحة الغضب ويجلس على الكرسي كمحقق ينصب شركا :

— أقسم لك أنك .. إذا ذكرت حقيقة ما حدث .. فإننى ..
بدا وجهها أنها ستتكلّم، فاعتدل فى كرسيه كقائد يتلقى أنباء أول اشتباك فأخذت تبلع ريقها بصوت مسموع شأن من يعانى جفاف الحلق ، فنهض سريعا وعاد إليها بكوب من الماء ..

نظرت إليها مليا وهى تأخذه من يده وأحست أن قواها ستخور ..
وأنها ستنفجر فى بكاء هستيرى لكنها تماسكت وجرت عدة جرعات وتعمدت أن تمد يدها إليه بالكوب مرة أخرى فأخذه فى رضا ووضعها على شيء بعيد ، وعاد فجلس منكفئا إلى الأمام ليسمع .. جاء صوتها واهنا ..
أخيرا ..

— كل الذى قررته أن نعيش هكذا .. معا .. فى صمت .. حتى تمر فترة معقولة .. ممكن بعدها .. أن تصدق ما أقول .. أو ..
فأخذه شبه غضب :

— يا سلام .. أهو من الغرابة إلى هذا الحد ؟! ..
فهزت رأسها بالإيجاب وأطرقت تنظر فى أظافرها .. فسأل :
— والناس .. هؤلاء الذين يدقون بابنا كل ساعة ..
— نتحمل يومين .. ثم .. نتصرف ..
فعاد يسأل فى إلحاح وبصوت خفيض هامس واضح النبرة :

— كل ما أريد معرفته هو .. هل هناك من سبقنى أولا ؟
— أنت الذى تسأل عن هذا لا أنا ..
فلم يفهم قصدها وصرخ :
— مجنونة ..

وشد شعر رأسه وهو واقف فلم تتحرك من مجلسها .. ودق جرس الباب
ملحا طويلا ثقيلًا .. فنظر إليها قائلا :
— سامعة ؟ .. ماذا ستقدمين إليهم ؟ « وقهقهه » ..
— تفاديا للأخطاء أرجوك أن تتقيد بكلمتك .. خير لنا أن يظلوا بعيدا
عنا .. لك .. ولى ..

فأدار ظهره وخرج .. وظلت هى على كرسى الاعتراف كما كانت تذكر
الكذب الذى لا يقبل لأنه فج والصدق الذى يمكن أن يزين .. لكنها غير قادرة
على خلقه الآن .. إنها تريد تدرييا .. وكل ما فيها الآن أنها استعانت بأسلحة
الدفاع التى استعملتها المرأة الأولى قديما .. لكن فى معركة جديدة ..

ومضى اليوم بلا طعام ولا شراب .. ودخل الليل .. كانت لا تزال حيث
كانت .. توقفت كل حاجاتها كجسم يتحلل وخيل إليها أن من الممكن أن
تظل هكذا حتى تموت .

وبدا للزوج ظل مشكلة فهو إن أشعل النور عرف الزائرون أنهم بالداخل
وإذا لم يشعلوا النور لعب الشك بقلوب الطارقين من الأهل وظنوا أن مكروها
حاق بهم وسيؤدى الأمر إلى إجراء آخر لا يخلو من الضجيج ..
وأنهى إليها هذه الأفكار وهما فى الظلام فقالت له :

— والحل ١؟

رد مؤنبا :

— تسأليننى !؟

فقلت بعد قليل :

— أشعل النور .. ونمثل قليلا .. وفى آخر الليلة .. نرى ..

وأحس أن آراءها مستقيمة تصدر عن عقلية بدأت تفكر ..

عقلية فتاة تعلمت التطريز والتدبير وتركت المدرسة وأقامت فى البيت ..
لكن التصرف فى الأزمان موهبة مستقلة .. ربما بحكم التمرس أو ربما بسر

الإلهام ..

وأشعل النور فى الشقة .. وبدأت بهجة العرس فيها صامتة .. لا شئ يناغى

شيئا .. فكأن كل قطعة أثاث تعطى ظهرها للأخرى كما فعل العروسان ..

ودق الجرس طويلا مرحا كأن من بالخارج يقول به لمن فى الداخل ..

للعروسين .. « افتحوا كفى حبا » ..

وعلت قهقهة أول الداخلين ثم دخلت أم العروس .. كان أول شئ عمله

« درية » أن خطفت انتباهها بحولة إياه إلى اتجاه آخر .. وارتمت فوق صدرها

باكية تشجع وتقول : « أوحشتنى يا ماما .. يا ماما » ..

وحضنتها أمها وفاح منها حنان .. ولم تلبث أن مالت على أذنها وهمست

للعروس : « هيه !؟ » فجاءتها كلمة واحدة منها .. « لا » .. وعم البيت

هرج ومرج .. وقام الزائرون من الطرفين بإضفاء بهجة طارئة على الصنم

الصامت .. على هذا البيت .. ثم ما لبث الحاضرون أن تبادلوا النظرات بقلق

هو دعوة إلى الخروج .. فعاد الصمت من جديد يظلل على المسكن ..

لجأت « درية » إلى الحجرة الداخلية المطلة على الممر الفاصل بين بيتين

متخذة مكنئها الأول ودخل هو وراءها فأطفأ النور ..

جلس على مقربة منها وبين أصبعيه سيجارة جمرتها توهج في الظلام ..
ورائحة التبغ تبعث في الفتاة ضيق النفس .. سعلت قليلا فكأنما تنبه
لوجودها .. وعندئذ قال في لهجة حكيمة بالغة الرزانة :
— تأكدى أننى « لا أجر رجلك » .. تأكدى أننى بعد أن أعرف

سيمضى كل شيء بيننا معقولا ..

لكن .. أخذت الفتاة توازن بينها وبين نفسها عن آثار اللهجتين .. كان
غضبه يفرعها فلم تصدق وعوده وكذلك فعل بها الهدوء .. بدا في الحالة
الأولى محاربا وفي الثانية جاسوسا .. أو صيادا شبكته من التغافل .. لكن ..
لا بد أن ينتهى الموقف فقررت أن تلقى بالكلمة هكذا كما يفعل المتحرون ..
فقال بدون ترتيب وبصوت خال من التناسق :

— كنت ذات يوم في « المسروقة » في بيتنا ..

فرد متلهفا :

— عال .. عظيم .. هيه ..

توقفت قليلا ثم استطردت :

— صعدت إليها بسلم خشبي طويل .. لعلك تعرف أنها مرتفعة وأن لها

شباك حديديا يطل على المنزل المهجور .. و ..

— عظيم .. عظيم ..

وبلغت جرة السيجارة غاية التوهج في نظرها .. فرماها وداسها ..

وسعلت هي ثم أكملت :

— و .. أذكر أن أمى أمرتنى أن أصعد بالسلم الخشبي إلى « المسروقة »

لأبحث عن طارة غربال مخروقة كنا نريد تجديده .. و .. ثم ..

— لماذا سكت ؟

— ٢٥ —

— شىء مخيف ..

قال بشىء من الاستخفاف :

— هل وجدته هناك فى المسروقة ١٩ ؟

ردت بصوت واهن :

— نعم ..

فرد متغافلا :

— يا آه ..

— دخل من الشباك المطل على الخرابة .. وظل .. لا بدا حتى صعدت

أنا ..

— ألم تقولى أن الشباك له حديد ؟

— ممكن أن يمر من بين القضبان ..

— يا سلام .. « ولم يخل رده من الاستهانة » ..

— ماذا فهمت ١٩ ؟

— ما قصدت إليه ..

— إنك لم تفهم .. لقد كان ثعبانا كان مكوما بين الأشياء المرمية هناك ..

فلما لمستته يدى رميت نفسى من فوق .. لعل هذا هو السبب ..

وظلل صمت طويل متملعل .. من نوع لم يخطر على بالها قط بعده انبعث

ضحكة مرة .. صغيرة كبذرة الخنظل .. عاد بعدها الصمت أخف وطأة لكنه

ملئ بالحنق .. ثم جاءتها كلمة فى الظلام الذى نشره هو عمدا على الحجرة

ليشجعها على الحديث ومنه عرفت كيف يتحدث العميان .. قال :

— هيه .. كنت واثقا أنه ثعبان ..

وبدا عدم التصديق فى لهجته .. ولم تستغرب فهى لم تقل الواقع من أول

مرة .. هل كان ذلك صوابا ؟! .. لقد تحيرت في الحقيقة فإن اللقاء الواقع إليه كان مرفوضا فكأنها أحسست أن الطريق يجب أن يمهّد بشيء من التزوير .. فالرفض لكل ما يقال من سيما هذه الحالة .. ولن يصدق شيء ما بسهولة .. حتى الحقيقة ..

هتفت بتعب :

— لم تصدق ؟!

— القرويات الساذجات لا يقلن شيئا مثل هذا « العبط » .. إليه .. لا أذكر أن واحدة قالت إنني سقطت من فوق شجرة .. لكن .. على كل حال .. إنه ثعبان .. لم تكذبي .. يجب أن يصدق هذا .. فبكّت بحرارة .. تذكرت شيئا من التفاصيل .. كان الجو شتاء أيامها .. ورائحة الرطوبة تملأ البناء الجديد .. والسيدة « زينات » تسكن الدور الأول .. و ..

وسمعت صفيرا ، كان صفيرا حزينا منغما اكتشفت أنه صادر من فم زوجها .. انهار شيء في داخلها فكفت عن البكاء إذ تصورت أنه كان من الممكن — لولا ما حدث — أن يصفر لها لحن حب مشهور .. ولما كف عن صفيره قال منددا :

— ثعبان ؟! عال .. عرفنا يا « ستي » أنه ثعبان ..

وقام واقفا وأشعل سيجارة أخرى فرأت وجهه في نور الثقاب .. وجه قاس تحت وهج النار .. استدارة تكاد تكون انتفاخا وشعر في لون القار .. وجلس :

— آخر ما عندي .. هو أنني سأعود غدا إلى عملي فلا داعي للإجازة .. وسأترك فترة .. بعدها ربما كان قرارى قاسيا وربما كان رفيقا .. ويمكن

لأجل أن ترتاحى أن تدبرى كذبة جديدة خلال هذين اليومين .. سعيدة
يا ست « العرايس » !!

* * *

وفي صبيحة اليوم التالى رآته يلبس ملابس العمل .. بذلة كمسارى بالسكة
الحديد .. وفاحت منه رائحة عطر بعد أن حلق ذقنه .. كان يمثل دور الرجل
السعيد أو على الأقل الرجل الذى لم يغش ..

ولما وصل إلى المكتب ليعلم أنه قطع إجازته جلس يسأل نفسه عما عسى
أن يفعله عندما يعود إليها .. أحس بشيء من الشفقة فخاف .. خاف أن
يضعف .. تذكر والدها الذى يقود كل يوم جمعة نصف تجار الشارع ماضيا
بهم إلى ضريح « البدوى » ليصلوا هناك .. ووجهه الطيب ، وأمها التى تتيب
عن كل شيء بنعم .. لم تعرف معنى المعارضة ولا النفاق فى حياتهم قط ..
لكن : « هذه الفتاة تبدو من نوع خبيث .. إنها تحمل الموقف بشجاعة من
يتلقى عقابا يعتقد أنه يستحقه » .. ولكنه لم يسأل نفسه عن ماذا تفعل
« درية » إذا رفضت العقاب فى الحال ..

وسمع أمر رئيسه بالذهاب إلى خط البرارى .. وحشة فى وحشة .. وإذن
سيبيت الليلة خارج المنزل .. أو يعود فى أخريات الليل ..
وأحس براحة يشوبها حزن .. كمن دفن عزيزا عذبه المرض . تنتمى إلى
الشيخين بالتساوى .. وركب القطار ..

وفي هذه اللحظة كانت « درية » تأكل بلا شهية ، وفجأة سمعت جرس
الباب .. بدا لها أن يدا سعيدة تدقه .. « ترى من هذا ؟ » .. وعندما وقفت
خلف باب شقتها المصمت لم تفتح فى الحال لكن قلبها أحس أنه إنسان عزيز
بدأ يثق الباب من أسفل بمقدم حذائه ويغنى .. إنه شقيقها « سيد » ..

وفتحت وتلقفته بين أحضانها وأخذت تقبله ودموعها محبوسة أما الصبي فقبلها في خدها ونظر إلى الأرض لينبها أن شيئا تبعثر .. كان قد ملأ جيبه بالحمص — كما كانت تفعل هي — من مقل الحرمين .. وأفلته وجلس يجمع الحب ثم دخل قبلها إلى حجرتها يفتش فيها عن شيء من الحلوى .. أما « درية » فقد كانت في الوقت الذي كان أخوها فيه يثرثر ويأكل — تفكر فيما عسى أن ترسل به إلى أمها ، عليها أن تقول لها شيئا لتحس أن المشكلة موضوعة بين اثنين .. وعندما تمر هذه الفترة — إن مرت — فعلى « درية » وحدها أن تدبر أمرها ..

وأفاقت على صوت أخيها :

— ماما تعاركت مع الجيران من أجل الجمعية ..

— هيه ..

كان يتكلم كمن يقرأ مكتوبا :

— وخالتي « زينات » أعطت لماما نقودا أمس ..

— هيه ..

— وبابا أرسل قميصا من الدكان لـ « سلوى » أختي فغضبت وبكت

وتعاركت معها ماما ..

وأشار إليها بيد ملوثة بالحلوى فسألته :

— ولماذا غضبت « سلوى » على القميص ؟ ..

— لأنه كان مقطوعا من الأمام .. وحمله « بابا » فقالت « ماما » :

« البائرة لبيت أبوها » .. فبكت « سلوى » لأنها لا تحب إلا الجديد ..

ذهب « سيد » إلى دورة المياه ليغسل يديه على الحوض ويقلد صوت أبيه

وحركته في الوضوء بصوت عال تعتمد أن يصل إلى أخته لكي يضحكها :

« إحم إحم .. أستغفر الله العظيم .. إحم إحم .. فوطة يا بنت يا « درية » ..
الحمد لله الحمد لله .. » ..

أما « درية » فقد كانت في شغل بنفسها .. وأوقفها حادث القميص
موقف تفكير سارعت بعده إلى صوان الملابس وأخرجت شيئا لفته في ورقة
ووضعتة إلى جوارها حتى إذا ما هم أخوها بالانصراف أعطته اللقافة لكي
يوصلها لأمها .. لا أحد غيرها .. ويقول لها : « سلامة وجد القميص
هكذا » ..

وعندما أخذت الأم اللقافة من يده كانت لا تستطيع أن تخمن ما معنى هذا
وعندما فحصت قميص « درية » ألفتة مقصوصا من الأمام قصا مستديرا
حديثا بفعل يد ، فوضعتة أمامها وأخذت تستعيد ما قاله ابنها « هكذا وجده
سلامة » ، ودقت صدرها : « هل هذا قصدها ؟ » ..

ولم تدر ماذا البست .. خرجت تهرول إلى بيت « درية » .. وانكفأت على
السلم عدة مرات ثم دقت الباب بقبضة يدها فعرفت « درية » من الطارق ..
واندفعت الأم من فرجة الباب قبل أن يتم فتحه كأن أحدا يطاردها ، ثم ردت
وراءها بظهرها ودخلت إلى أقرب حجرة وجلست متهاكة تكاد لا ترى
شيئا ..

وجلست أمامها « درية » في صمت .. لم تسأل البنت أمها ما لها ؟ فعرفت
الأم أن بنتها في حاجة إلى سؤال .. كل شيء فيها منطقي ووجهها حائر
كغريب انقطع به الطريق ..

وأخذت الأم تفحصها من أعلى إلى أسفل : استحال البياض شحوبا وهناك
أحمرار على الخدين تحت العينين .. وعيناها المرحتان أخذتا تعبيرا حزينا لا يخلو
من القسوة .. قسوة من يريد أن يبطش بشخص لا يعرف من هو ولا أين

هو .. ولم يكن في وجهها زينة ولا هي منسقة الهندام .. ثمرة كاملة النضج ملقاة على أرض متربة .. وجسمها العبل الذى يشبه جسم النحلة متهالك فى كل حركاته . متعبة .

ثم سألتها أمها فى هلع بعد أن استردت أنفاسها :

— ما حكاية القميص .. هل هى نفس الحكاية ؟

فأومأت بالإيجاب وفى عينا نظرة الثمرة المحبوسة ، فهتفت الأم :

— يا تهاار أسود .. أدركينى .. بكوب من الماء !!

شربت الأم ورشت ما بقى من الكوب على وجهها وصدرها وشعرت أنها الآن وجهها لوجه أمام مشكلة أقوى من قواها .. حارس خددع .. ضاع منه شىء ليس له عوض ..

— احكى كل ما حدث يا مجرمة !!

فغرت فمها وصمتت ثم همست بخنق !!

— حتى .. أنت .. يا .. ماما !!

فصرخت الأم :

— احكى !!

— هل تذكرين يوم الخميس .. يوم أن ذهبت إلى مسكن السيدة

« زينات » الجديد .. ثم عدت فقلت لك .. وقلت لى ..

ولم أتبين شيئاً إلا يوم الخميس الماضى ..

صمتت الأم وأخذت تذكر .. وضعت سبابتها على صدغها ثم نقلتها إلى

فمها وعضت .. ثم عادت فوضعتها على صدغها .. لم تكن تذكر شيئاً واضحاً

تماماً .. كلما مالت إلى نقاء صحيفة بنتها تذكرت الوقائع ، وكلما مالت إلى

العكس دخلت هذه الوقائع فى ضباب وأصبحت لا تذكر شيئاً مطلقاً ..



وظلت هكذا حتى أحسست بالدوار .. ثم .. وفجأة لطمت « درية » على
خدها لطمة تركت آثار الأصابع وصرخت فيها :
— هل أنت متأكدة أن أحدا آخر .. لم ..

لم تبك « درية » في هذه المرة : فطنت إلى أن اليد التي يطلب منه العون
لطمتها الآن فهربت الدموع .. وعادت تذكر « سلامة » وسخريته القاتلة ،
وتتصور ماذا عسى أن يقول إذا ما قصت عليه القصة الحقيقية التي سمعتها أمها
الآن ولم تصدقها ؟

وظلل صمت ودت أن يكون صمت الأبدية .. قالت بعده الأم بليوننة تمثل
الوجه الآخر للقسوة التي صدرت منها :

— « درية » .. أنا أمك .. ساعدني لأساعدك ..

فابتسمت « درية » .. هذه هي أمها تفعل نفس ما فعله الزوج .. ظهر
مقاتلا ثم ظهر جاسوسا إذ راوح بين القوة والحيلة ، ولم ترد الفتاة وقالت
الأم :

— وتبتسمين ؟

— بكيت .. وضحككت .. فلم يبق إلا الابتسام ..

— إنك غير مبالية .. لست بتتى .. سأقوم وأعود إليك غدا .. فكبرى
عسى أن تقول الحقيقة ..

وبعدما خرجت الأم أخذت « درية » تبحث عن دمة فلم تجد ينبوعا
للمدوع ..

أما « سلامة » فقد تلقاه بعض زملائه في قطار البرارى بالدعابات المألوفة
ومشى كل شيء مشيه العادى .. وجوبه "اس في الدرجة الثالثة التي عاشرها

أكثر من عشرة أعوام .. تلك الوجوه العارية من الأقنعة .. ما له اليوم يرى
ما تحت بشرتها .. يستشف أفكارها كأنها تحت عدسة .. هل صهره ألم
ليلتين ؟ ..

وجلس على صندوق خشبي على مقربة من ظهر إحدى المقاصير وجعل
يفكر : « إذن ماذا ستكون هي ما دام أمرى أنا هكذا .. كل ما يؤلم أنها
كاذبة .. هل أنا مخدوع ؟ .. وهل هذه أول تجربة وآخر تجربة .. يعني فرصة
الخداع ؟ .. »

وقام منتفضا خائفا من هذه الأفكار .. أراد أن ينصرف عنها .. أحس أنها
الآن تأكل على الأقل وتشرب وتكف قليلا عن البكاء ..

« ما كان أروعها في تلك اللحظات اليتيمة ! » وشعر بحاجة إلى
الدموع .. فعادت إليه صورتها مثل قطرة بلا مغالب خائفة تتدسس في أعطافه
مغمضة العينين ..

كان في شباك القطار ساعتئذ والأرض الجرداء ذات الخنادق والغاب
والحلفاء تنطوى إلى الوراء كبساط شيطاني .. وتأوه .. ورأى بعض الطيور
الجارحة تحلق فوق الماء الراكد .. وسمع أصواتا وحشية متخاذلة لكائن
يؤكل .. فذكر كلمة « ثعبان » !!

عض شفته .. ومشى في الطرقة الضيقة المفروشة بمشمع أخضر متآكل
تلك الواقعة بين حائط القطار وأبواب المقاصير .. مشى وهو يحس أنه
يتعذب .. ماذا قال لها ؟ كأنما ارتدت إليه كل الآلام .. وبدأ يتشكك في
نفسه .. ربما كان قد قام بعمل غير متكامل فظلمها !! .. وسمع طلقة نارية
خلال البراري فخاف كأن الرصاص مصوب إليه .. عندئذ أيقن أن التعاسة
تعدى .. إذن .. لقد أعدته بتعاستها .. لكن .. من يدريه أنها تعيسة .. لماذا

(البيت الصامت)

لا يكون هناك من خدعها وعندئذ شعر بميل إلى الكيد .. لماذا إذن لا يربطها في شجرة الكره حتى تحرم من ظلال الحب .. لكن .. هل كان ما فعلته قبلا تمثيلا في تمثيل ؟ ..

واستمر يعبر الطريقة .. وعبر من عربية إلى عربية .. ألقى نفسه في عربات الدرجة الثالثة المزحومة بالركاب .. وكان أحد زملائه في الطريق إليه وعلى وجهه دهشة وضحكة احتقن منها وجهه وناس قد تركوا كراسيهم والتفوا حول إنسان .. أيقن أن حادثا ما قد وقع .. ولكن بدا من وجه زميله أنه حادث غير سيئ ، فسأل « سلامة » :
— ماذا هناك ؟

سحب زميله من يده وهو يقول :
— تعال .. تعال بنفسك ..
وهناك كان ناس متحلقين حول قروية جاءها المخاض .. وكانت وحدها .. فصرخ فيهم بكل قواه :
— أبعادوا الرجال ..

ثم نادى على عدة نسوة ونقلوها إلى كشك في آخر العربى فيه فرملة القطار وأشياء أخرى .. وترك معها امرأتين وأقفلوا عليهن الباب .. وكانت المرأة في الكشك الصغير في آخر العربى .. نظر أحد الريفيين المرحين إلى « سلامة » قائلا له :

— يا حضرة الأفندى ..
— نعم ..
— تعال نتراهن .. ماذا ستلك هذه المرأة يا مدير المستوصف « وضحك من

حوله شبان وأولاد « ولد .. أو بنت ؟

رد « سلامة « بفتور وعقله في ظرف آخر من المشاكل :

- بنت .. كلب يا برهومة !!

ومن خلال اللفظ والضحك على خلع اسم برهومة على الشاب الذى لم

يكن اسمه كذلك قال ذلك الشاب :

— ولد وحياة عينيك . وسيكون كمسارى بإذن الله ..

وضحك وضرب أرض القطار برجليه ورمى بالتذكرة الخضراء في وجه

أحد مصاحبيه في السفر ..

وتركهم « سلامة « ومشى .. أعادت إليه كلمة « وحياة عينيك «

ذكرى عبق .. فيها صوت ناعم مليء بدعاء يشبه الطيبة .. يوم حملت

« درية « فيهما لترى من سينظر في عيني الثانى مدة أطول .. مباراة سحرية

كان كل منهما يرى طيفه في حدة الثانى وبدت دلائل الانهزام على شفتها التى

كانت قريبة منه يرى شقوقها التى لم تغط بدهان .. على هذه الشفة بدت بوادر

الهزيمة فضحك يومها وغطت عينيها بكفها .. هاتين العينين اللتين لم يقدر له

أن يرى خياله في حدقتيهما بعد .. « يا إلهى !! » وتهد ..

كان في السماء سحب .. ومخائل الحلفاء والغاب تتأوج مع ريح لينة لم

تشتت شمل مجموعات الطيور التى تخلق في سماء المنطقة .. وكل شىء حوله

يوحى بالجفاف والقسوة وحدث حوادث ليست في مواضعها .. كولادة

امرأة في قطار ..

وعاد إلى العربة ومر على الكشك ..

كان كل شىء قد انقضى .. وتحول نصف ركاب العربة على الأقل — إلى

حموات — يسألن عن نوع المولود .. كان اهتماماً أشبه بأنباء المباريات ..

وخرجت إحدى المرأتين وأعلنت أنه « غلام » وعندئذ ضجعت المجموعة التي فيها « برهومة » .. وزعق برهومة هذا وهو يفتش عن « سلامه » ..
— يا حضرة .. يا حضرة .. مبروك عليكم الكمسارى الجديد ..
وعبر « سلامة » لا يرد .. كان قد ألقى نظرة على وجه الوالدة فرأى الهزال والجهد والسعادة .. واستطاع أن يتصور مدى فرحة الأمهات بمثل هذه الأحداث .. وتذكر « درية » ثم تصورها في مثل هذا الموقف .. وعندئذ قرر شيئا ..

ومضى اليوم .. دخل الليل .. ومضى منه جزء فانتهت وردية « سلامة » .. رأى نفسه يشق طريقه نحو البيت ..
في مدخل البيت قطط تتعارك في شبه اتفاق .. صعد السلم وأدار المفتاح في الباب ، ودخل .. لم يشم رائحة إنسان ولا نفس فبدأ يشك في أنها تركت المسكن .. وعندئذ وقف وقد أقفل باب الشقة بالمفتاح .. كان المطبخ إلى يساره فدخل .. ألقى هناك كل شيء مرتبا .. ليس فيه أثر لإنسان أكل أو أعد طعاما .. أهكذا تنخل روح « السكن » عن بعض البيوت المسكونة ؟ ، وزفر .. مشى نحو حجرة النوم ففتحتها وأضاء نورا .. وكأزهار من الورق بدا كل شيء أمامه .. أو كمنظر أثاث في صالة مبيعات .. والحجرة خالية .. لم يستشعر فيها نكهة جسم ولا روح ، من تلك القوة الإنسانية التي تمتزج حتى بأحجار الآثار ..

وخرج سريعا من حجرة النوم إذ أحس بوحشة التفرد .. ظمى إلى أن يسمع صوت إنسان .. ولو عدوا .. ودلف بسرعة إلى الحجرة الأخرى حيث كانت تعترف .. حيث ذكرت قصة « الثعبان » فأشعل نورا .. وحملق وهو لا يصدق ما يرى .. رآها متكورة على حشية مبسوطة على الأرض وقد انحسر

الغطاء وتزحزح القميص حتى ركبتيها .. أيقظها النور فهضت مذعورة .. من راقدة إلى واقفة دفعة واحدة وهي تسأل كأنها خرجت من حلم سخيـف « من ! » .. !

حملقت فيه ثم استردت وعيها وذكريات الأمس .. فأخذ وجهها السحنة القديمة أما هو فكان متعبا .. وكان يريد أن يقول لها ماذا قرره لكنه شعر أن ذبح الطائر الجائع شيء كرهه .. كانت عمته في القرية تطعم الدجاجة قبل أن تذيبها فكأنما هو اعتذار الإنسان المتمدن عن الإنسان الوحشى القديم .. وكانت عمته تخرج نفس الحب من حوصلة الدجاجة بعد دقائق وهي تنظفها للأكل .. هكذا !!

ظلت واقفة على الحشية واللحاف حول قدميها ، كأنها بانتظار شيء يحدث ، عندئذ قال لها :

— لماذا ترقدين على الأرض ؟!

فنظرت أسفل قدميها وهمست بصوت مبحوح :

— أين الأرض ؟

— أقصد لماذا لم ترقدى على السرير ؟

فنظرت في وجهه :

— وأين السرير ؟!

فهم قصدها .. كانت لا تريد أن تعترف بسريرها كفراش لأنه فقد الروح الأصلية .. وعندئذ أحس بميل إلى الكلام على الرغم من اشمئزازه فجلس على الحشية ومدد رجله مسندا ظهره بزاوية إلى الحائط وقال لها : اجلسى .. ففعلت ..

كانت بادية الهزال .. وذكر المرأة التى ولدت في القطار .. فقال لها كمن

يسأل عن السياسة :

— ليس هناك جديد ؟

فهمست :

— من أين ؟

طحن أسنانه بعضها ببعض وقال :

— فى القصة .. قصة آ ..

— غدا نتكلم ..

— أنا سأنام على هذه الحشية فاذهبى أنت ونامى هناك .

هزت رأسها نفيا ..

فهتف بجفاف :

— ماذا تقصدين ؟

نظرت إليه طويلا ثم انسحبت خارجة من الحجرة متجهة إلى المطبخ حيث
جلست على كرسي بالملقوب وأسندت جبينها على مؤخرته .. حتى إذا ما أهل
الصباح أخذت تجول فى الشقة على غير هدى .. وبعد ساعة سمعت سعاله
الذى ينبىء عن الإفراط فى التدخين ينبعث من وراء الباب .. تعلقته به عيناها
فإذا به يفتح ويخرج منه بوجه مستدير متفخ مصفر وينظر إليها ولا يتكلم
وأسنانه صفراء .. كان فى طريقه إلى دورة المياه .. وعندئذ انتهزت الفرصة
ودخلت هى الحجرة التى خرج منها ..

كل ما كانت تتمناه الأم أن يطول الموقف وألا يسارع « سلامة » بقطع
الحبل فإن المسألة في نظرها أوسع وأكثر شمولاً ..

لذلك فقد عادت إلى « درية » في اليوم التالي .. عندما كان هو في قطار
البرارى .. رأتها الفتاة فشعرت بعطف عليها .. خيل إليها عندما رأت أمها أنها
هى صاحبة المشكلة الأولى لكنها على الرغم من كل شيء فقد كانت « درية »
تنظر إليها على أنها منقذة ومسئولة ..

وجلست الأم وقالت للفتاة وعيناها تكادان تنهشانه :

— لقد دبرت الأمر مع أهلك !!

— أوى ؟ هل قلت له ؟

— نعم يا ملعونة .. ماذا كنت تظنين إذن .. أليس هو والد بنات

أخريات .. افهمى !!

تلعنمت « درية » وهى تقول :

— أريد أن أعرف أولاً : هل صدقت أنت ما قلته لك حول الموضوع

أولاً ؟

هتفت الأم بسرعة من يريد أن يتخلص من جثة :

— لا يهم .. المهم أن ..

فبكت درية :

— إذن فكيف يصدقنى هو ؟

— اسمعى .. ليس هناك وقت .. وكل يوم يمر هو فى مصلحتنا .. وإذا كان ما قلته حقا فلسنا غشاشين .. أبوك رجل يعرف الله وقد عرفه الله .. وأملك مسكينة .. وأخواتك من ورائك فلا بد إذن أن تستميتى فى سبيل البقاء هنا .. فى بيت « سلامة » .. وسأظاھر بأنتى لا علم لى حتى يقول لى هو .. وعندئذ .. آه ..

وعضت المرأة أصبعها ونظرت « درية » إلى أمها .. أدركت فى وهلة قصيرة جدا أن لها فى الدنيا مكانين فقط .. « هنا » .. أو « هناك » .. وسألت نفسها : وأين يكون « هناك » ؟ .. هناك مكان مجهول لا يعلمه إلا الله ولن يكون البيت الذى ولدت فيه .. ثم رفعت « درية » صوتها فى حدة :

— وماذا أعمل يا ماما ؟!

فهمست :

— حاولى أن .. أن تعيديه إليك .. هه .. هل أنت فاهمة ؟

— فاهمة .. لكن هذا ليس سهلا .. لا أعرف العوم لكن سألقى بنفسى فى الماء لأن ذلك ضرورى ..

وسكتت ثم صرخت : « ماما .. انتهينا .. اتركنى فقد أوشكت على الجنون » ..

عندما تأهبت الأم للخروج قالت لها بصوت حاسم :

— دبرى نفسك .. وافرضى أنه لا أم لك ولا أب ..

وأتهجت نحو الباب فشعرت « درية » كأنها ترى لأول مرة فى حياتها ظھر أمها .. إنه إعراض شديد .. مثل سدا داكنا قام بينها وبين القلوب التى أحببتها فماذا عسى أن تفعل ؟!

وها هو ذا الآن نائم بعد « وردية الليل » .. مضى عليه وقت طويل ..

واربت عليه الباب فألقته مستغرقا .. ولم تدر لماذا دخلت ووقفت إلى جواره على مقربة من رأسه .. رأيته وهو نائم .. شفتاه منفرجتان عن أسنانه الصفراء المتلاصقة وشعره القارى منقوش وشعر ذقنه قد نما حديثا .. ربت ذراعيها على صدرها ووقفت تتأمل هذا الرجل الذى يطالبها « بشيء » كأنها ولدت بدونه .. تأرره عند غيرها .. عند الذى خطفه منها وهى غير قادرة على الحراسة . وشعرت « درية » أن هاتين الشفتين المنفرجتين ممكن أن تخرج من بينهما كلمة تريجها من عذابها ثم .. سألت نفسها : « ترى بماذا يحلم الآن » ؟ ثم جاءت أفكار مهوشة لا يربطها أصل واحد .. فماذا لو خنقته ؟ أليست الجريمة الثانية أخف من الأولى ؟ ثم .. ما لبثت أفكارها أن تحولت .. إذ شعرت بميل طارئ إلى أن ترقع وتقبله وهو نائم وعندما يستيقظ .. وتأوهت !! « مصدر الخطر ومصدر الأمان » ..

وعندئذ تقلب وفتح عينيه .. كان يحلم بما رآه فى القطار الليلة البارحة .. بحادث الولادة وما حوله .. وبدأ فى نظراته أنه يحاول استرداد وعيه بعنف فلما انتبه تماما نظر إليها وقال لها :

— لماذا أنت واقفة هكذا ؟

فأجابت ببساطة الصادقين وهى كاذبة :

— سمعتك تنادى على بأعلى صوتك .. فلما وجدتك نائما لم أحاول

إيقاظك ..

وأطرقت فى خنوع وطاعة ..

جلس فى الفراش وفرك عينيه .. نظر إليها فألفاها فى كامل الزينة وفى عينيها

تودد وتعاسة .. ذراعاها مربعتان على صدرها وعيناها تختلسان إليه النظر ..

— ٤٢ —

سأل متشككا :

— أنا ؟ .. أنا ناديت ؟!

ردت بإنكسار :

— على كل حال سمعت اسمي يخرج من حجرتك .. آه .. » ثم بتدلل يلين القلب « لا تمزن .. فنحن نحلم بالأشياء التي نكرهاها أو نخافها .. » وبعد صمت « أليس جائزا أن تكون قد حكمت بقتلي !!

هتف مدهوشا :

— قتلك ؟! « وهز كتفه « ولماذا أقتلك ؟!

ابتسمت ودبعتان تجربان على خدها في صمت وهي لا تزال واقفة :

— لأنني هزرت فكرتك عن النساء — على الأقل — إذا كانت مشكلتي

تخصني وحدي ..

نظر إليها مدهوشا ، ولم تكن هي أقل دهشة من نفسها .. وكانت لا تزال صورة أمها وهي توليها ظهرها معرضة تملأ الفضاء كله أمام عينيها . لذلك فإيتها استغاثت بكل قواها الغريزية والشخصية . ولاقتناعها بماضيها وسلامته وحاضرها وخطورته بدأت تتحول إلى شخصية أخرى .

رد « سلامة » مكابرا ومؤنبا :

— مشكلتك تخصك وحدك أنت يا عروسة !!

فردت باكية :

— « سلامة » .. لا .. إنها مشكلة اثنين .. فإذا كنت أنت عسلا وكنت

أنا زفنا فقد اختلطت بك .. (وأجهشت) افهمني ..

وأحس « سلامة » حقيقة أنه لن ينسى ما حدث . لا اهتزازة خيبة الأمل



بالنسبة إليه ولا نظرات الرعب والهلع والاستغاثة الصامتة التى نطق بها وجهها فى الليلة الأولى . والجسد المكشوف الذى أنسى الذل صاحبه أن تسدل عليه القميص . تبكى وهى عريانة كأنما كان ذلك رمزا لما ضاع منها . وجعل يتصور أنه أعاد التجربة مع امرأة جديدة ثم وجد عندها (اللؤلؤة) فإن وجودها هذا لن يغطى على آلام الصورة القديمة .

عندئذ هبطت عليه فكرة استجاب لها . فنظر إليها وهى واقفة وقال لها دون أن يناديها باسمها :

— كم الساعة الآن ! .. مناسب .. البسى ملابسك ..

فغرت فمها وأرادت أن تسأل وإن عجزت عن النطق :

— آ .. أين ؟ ..

— سأسافر معك سفرا قصيرا ..

وكان فى قرارة نفسه قد توصل إلى حل وسط وثق أنها ستقبله وسترى ذلك خيرا من الفضيحة . ثم كان هناك الشئ الأول والأكثر أهمية وذلك هو الكشف عن حقيقة ما حدث لها . وفكر تحت ظل هذه المسألة سائلا نفسه : لماذا لم تستلذه قبلا (بعد عقد القران) فى ليلة من الليالى التى كان البيت يخلو عليهما فيها لأرتكاب عمل كان ممكنا أن تتمسح به ؟ وصمت . مال إلى أن تصرفاتها كانت طبيعية .. وأنه لو كان هناك فكرة سابقة عما اكتشفه هو لآخذت فى سبيله أشياء كثيرة . إذن فعند « درية » سر شخصى ربما كان من الخفاء إلى حد أنه خفى عليها هى .

وفى سبيل الحصول على هذا السر قرر السفر إلى إحدى عواصم الجنوب

لقضاء عدة ليال يعودان بعدها وقد تم الاتفاق على أمر ما . ثم سمعته ينادى اسمها وهي تحزم الحقيبة فأحست أن اسمها عذب . طرفة عين من السعادة .. ليست سعادة بالمعنى العظيم ولكنها رائحة الأمان في كهف المخاوف ..
كان خوفها شديدا لكنها استراحت لهذه الفكرة .

وطول الطريق كانا صامتين في إحدى مقاصير الدرجة الثانية .. هي إلى جوار النافذة وهو إلى جنبها .. وكان بعض الزملاء من الكمسارية والمفتشين يحيونهما ويعثون بالمشروبات نحية للعروس ..

ثم نزلا في فندق متوسط وطلب « سلامة » حجرة بسريرين . ولم تدهش لتصرفه . غير أنها شعرت أن بعض (البعد) قد يكون صورة من (القرب) أو على الأقل سببا إليه ..

وتناولوا عشاءهما في مطعم عام . وكل منهما يأكل وعيناه في طبقه .. وكانت هي منسبلة الأجفان باستمرار تقريبا لا أفكار لها سوى أن تستشف أفكاره . أما هو فقد زابته فترة الهدوء تلك التي صحبته في القطار وبلغت ذروتها حين رأى إخوانه وتبادلا التحيات والنظرات الغامضة .

أما الآن فإنه يشعر بأنه أخطأ . هو الشعور العكسى لما شعرت به أم « درية » و « درية » أيضا . أحس أنه يحاول أن يجد بقعة مضيئة في هذا الليل الخفيف ، وأنه ربما قيل له من شخص لا يعرفه الآن : « طيب . ولماذا سكنت كل هذه المدة » ؟ .

وشعر فجأة كأنه خاف من أفكاره فما لبث أن أنهى طعامه ونهض . ونهضت وراءه تمشى بخطوات متعثرة إلى حيث يقودها .

سارا يقطعان كورنيش النيل في الطريق إلى الفندق . وكما استمعا في المطعم

إلى صوت مضغهما استمعاً في الشارع إلى وقع أقدامهما . وعلى طريق الكورنيش كان هناك بناء يقام . عمارة جديدة . عبراً من أمامها . وكانت هي ناحية البناء فملأت أنفها الروائح التي لم تعد تخطئها رائحة الآجر والأسمنت والماء المرشوش يخالط كل هذا رائحة خشب يحترق وعرق و .. بصل .. وخوف .. فألقت نفسها بلا إرادة تمسك زوجها من زنده كأنها على وشك أن تتداعى . وتركها تعمل لم يبد رفضاً بحركة أو كلمة وظلت هي متشبثة به حتى أوشكا على الانحراف في شارع جانبي لكن أغاني من هناك في ذلك المبنى الذي يقام كانت تطارد سمعها وقلبها : « ولدى .. والادى .. ولدى » ..

* * *

بينما كان يعبث في « الكومودينو » صادف منديلا من الورق ملطخا بأحمر شفاه عليه بصمات غير متكاملة .. وبطاقة تهينة تحمل اسم أحد تجار السجائر .. فرجح أن الحجرة كانت مخدعا لعروسين فرحا .. ثم رحلا .. خلع كل منهما ملابسه وجلس فوق سرير بعد أن اختار هو سريره .. وجلست « درية » وصفحة وجهها نحوه تعاني غصة تحاول التخلص منها بالتنحنح ممسكة عنقها بأطراف أصابعها كأنما لتساعد شيئا في داخله على الحركة .

في الحجرة نور خافت وهو يتكلم ... قال بهدوء شديد :
— غير ممكن أن نظل هكذا .. أنت .. طبعاً .. تعرفين هذا .. ولذلك فباختصار إنني مستعد أن أعتبر ما حدث خطأ ليس عليك فيه مسئولية إلا كمسئولية شخص أصيب بطلق نارى .. عمداً .. أو بغير قصد .. من بندقية قتل أو صيد .. وأنت على بأن الوفاء شيء يأتي ويذهب .. يعنى .. ربما

— ٤٧ —

لا يكون موجودا ثم يوجد .. والعكس .. لكن أسمعيني ؟

— نعم ..

— لا تبكى .. لأجل أن نبني بيتا يجب أن نضع أساسه على أرض سليمة ..

يعنى .. مثلا .. هل رأيت العمارة التى مررنا بجانبها ونحن عائدان ..

ردت كالللسوعة :

— نعم .. نعم .. نعم ..

— لا بد من وضع أول طوبة على الأرض الأصلية .. ونحن هنا .. ربما كان

الجو يدعو إلى الثقة والحرية .. وأظن أن فى هذا دليلا على سلامة نيتى ..

وصمت .. وجو الليلة متقلب كما تنبأت « الأرصاد » .. فترات ركود

وصفرات ريح .. ومع نشاط الريح — تأتى واهنة إلى حد لا تسمع فيه إلا بأذن

« درية » تلك اللازمة التى كانت المجموعة المتحلقة حول النار فى العمارة

تؤديها مع التصفيق بعدما يسكت المغنى المنفرد ، وعندما صمت « سلامة »

وتوالى الريح فى هبات حملت إليها صدى اللازمة .. « ولدى .. والادى ..

ولدى .. » ..

قالت الفتاة وهى ترتعد :

— « سلامة » .. حكاية « الثعبان » كانت كذبا .. اعذرني .. كنت أريد

أن أقول لك شيئا يقنعك .. لكن .. الذى جعلنى أكذب هو اعتقادى أن

الصدق البسيط لا ينفع .. أنا كنت فريسة .. حادث غير مفهوم .. حتى أمى

لم تفهمه .. عندما حكيت له .. وبعد ذلك لخوفى غير المفهوم حاولت أن أغرق

كل شيء فى النسيان .. لكنك ذكرتني بكل شيء مضى كأننى رأيت حلما

وأنت فسرته ..

— احكي ..

— آه .. آه .. هل رأيت العمارة التي تبنى هناك ؟

قال باستغراب :

— ما لها ؟!

— حدث لي شيء في واحدة مثلها .. لم أفهمه لا أنا ولا أمي حتى فسرته لي ..

واستغرقت في البكاء .. وكانت الكلمات تخرج فرادى متفرقة كأنها تهتف بها وهي غارقة يملأ فمها الماء فتسكت ويفرغ فتكلم ..

* * *

حضرتها صورة فتاة في الثانية عشرة من العمر .. في أحد جيبي ثوبها حمص وفي الثاني ريال من الفضة .. وفي يدها فستان لف في صفحة الرياضة .. فيها صورة لرجلين يتلاكان ..

كانت في طريقها إلى السيدة « زينات » التي تسكن الدور الأول .. لم تكن ذهبت إليها من قبل في المسكن الجديد .. والمبنى بممرات كبيرة وعدة أبواب وفي كل طابق سبع شقق ..

لذلك أن تصعد إلى أعلى .. لعلها نسيت الدور المقصود أو لأنها تصعد سلما عاليا جدا لأول مرة في هذه المدينة .. إنهم يسكنون « سلامك » وهي تشعر بسرور لكل ما حولها .. وقفت من خلال إحدى نوافذ السلم في الدور السادس تطل على طنطا .. رأت سطوحا ومآذن .. منظرا ساحرا لم تشهده من قبل ثم استمرت تصعد حتى رأت نفسها في آخر دور .. السلم بعد ذلك يؤدي إلى السطوح .. وكل شيء هادئ .. والشقق

بلا أبواب ولا شبابيك .. هيك كل ضخم من المسلح والطوب ندى الرائحة ..
وضحكت لنفسها ضحكة مسموعة وهي وحدها فقد رأت المدينة حقيرة
جدا .. ونظرت إلى السماء حين سمعت أزيز طائرة وتحيلت نفسها تنظر من
الطائرة .. « لا بد أن المدينة تبدو أحقر » ..

وسفت قبضة من الحمص .. شعرت ببهجة طفلة تلهو في الخلاء للمرة
الأولى .. لا تنظر تحت قدميها .. وعندئذ تقدمت ودخلت من أقرب باب ..
كان في المبنى بقايا عمل بدليل أن هناك أجرا مرصوصا .. لكن .. لا صوت ..
وبعد قليل شمت رائحة خشب يحترق .. ولم تعرف أين مصدر الرائحة ..
وقفت تتفقد ما حولها وما لبثت أن استشعرت كأن شخصا خلفها ..
نظرت مذعورة فإذا به شاب في العشرين من عمره يرتدى سروالا وقائلة
وفي عينيه نظرات لم تر مثلها .. سألتها عما تريد فلما قالت : خالتي زينات ..
أجاب :

— تعالى أريك الباب .. لا تخافى .. « وكان يسحبها إلى الداخل » ..
فلما جفلت وهمت بمغادرة المبنى تشبث بيدها .. عندئذ أحس بطراوة لم
يحسها قط إلا يوم أمسك برغيف المدينة للمرة الأولى وهذا خبز لم يأكله
بعد !! ومن خلال شعرها أو ثوبها لا بد أنه شم رائحة عطر .. ملأ أنف ذلك
الذى حكم عليه بأن يحمل الأحجار وينام في المباني حتى .. حتى تسكن ..
كل مبنى جديد نام فيه بغير « عقد » حتى إذا ما سرى فيه النور وجب أن
يخرج .. نظر إلى الصبية نظرة شاملة مفعمة بذكريات كل أغنية سمعها هنا ..
والألوان التي رآها في النوافذ المضيئة ليلا من خلال المباني المعتمة .. وتأودات
النساء في الشوارع وضحكاتهن في الأسواق وإطفائهن النور خلف الستائر ،
(البيت الصامت)

هذا النوع الذى لم يوجه إليه كلمة شخصية طوال حياته .. كلمة من ملايين الكلمات التى تطلق من الشفاه النسوية كل يوم .. وخصوصا تلك الشفاه المطلية .. ومن خلال أنامل الصبية سرى فيه شيء يحى ويميت ووجد نفسه يهتف : « ولدى .. والادى ولدى » ..

وحاولت « درية » سحب يدها لكنها كانت كمن يسحب أصابعه من بين حجرى طاحون .. ولما همت بأن تصرخ قال لها مطمئنا :
— لا تخافى .. تعالى أفرجك على المآذن .. ادخلي لا تخافى ..

ووجدت نفسها مدفوعة يديه فى عمق أعرق .. أبعد ما تكون عن التوافذ والناس .. عزلة قائمة جعلتها عاجزة أن تنفس .. وعندما التصق بها فاحت منه رائحة أميزها رائحة البصل والدخان .. وحملها بين ذراعيه كدمية وقد كتم أنفاسها بفمه .. ثم سادها اضطراب ..

وبعد بضعة دقائق أفلتها إلى الخارج فنزلت وهى تتلفت .. ولم تدر كيف عبرت على شقة السيدة « زينات » ولم تفتن لها .. وجدت نفسها فى الشارع .. ونظرت فى الجريدة الملفوفة التى أعطاها لها قبل أن تنزل بعد أن سقطت منها .. كان الرجلان لا يزالان يتلاكان .. وتحسست جيبيها فوجدت الحمص قد تبعثر والريال قد ضاع !!

وقفت تبكى برهة ثم سارت دامعة العين .. وفى إحدى المرايا التى تزين واجهات صالونات الحلاقة نظرت إلى وجهها فألفته شاحبا .. لكن .. ليس فيه أثر لشيء .. وتواردت إلى ذهنها خواطر كان أهمها وأشدّها إقناعا هو التوجه فورا إلى « مقل الحرمين » حيث الحاج يحى هناك .. وفعلت ..

كان الناس مزدحمين حول المقل والصبي يبيع والحاج فى الداخل ..

فدخلت إليه .. كان ممسكا بأحد الغرايل ينقى به شيئا فلما سمع نداءها نظر إليها .. حملق الرجل إلى الصبية الشاحبة واستغرب ، لكن غرابته زالت حين قالت له : « إن الريال سقط منها وأنها خائفة أن تقول لأبيها » ..

وقبلها .. أحست بلسعة نار على جبينها .. ثم رأتة يهرول إلى الصندوق فيبحث عن ريال من الفضة فأخذه وخرجت ..

نظرت إلى ضريح « البدوى » ودعت له عندما كانت في الشارع ثم توجهت من جديد إلى شقة السيدة « زينات » .

وعندما وصلت إلى باب العمارة وجدت إحدى بناتها فأسلمتها الفستان وعادت بسرعة .. كادت تجرى ..

وقابلتها أمها باحتجاج :

— لماذا غبت يا لعيبة ؟ ..

فلم ترد .. ودخلت إلى مكان ما وفحصت نفسها فخافت .. ودخلت إلى حجرة وارتمت تحت الغطاء .. راحت في نوم متقطع لكنه ثقيل الوطأة .. واستيقظت وكان الليل قد نزل .. وحامت حول أمها لتحكي لها ولكنها تراجعت .. وفجأة صمت أن تقول :

— ماما .. انظري .. هاتان البقعتان من الدم ..

وبكت الصبية .. انخرطت في البكاء فما راعها إلا أن تقوم أمها وتحضنها ببشاشة وتقبل خديها وتمس لها بغموض يبعث على الاعتقاد بأنه شيء عادي .. عادى جدا .. يحدث لكل فتاة ..

— لكن يا ماما .. آ ..

— هس .. ولا ترفعى صوتك .. ذلك شيء يحدث للبنات في سن

معروفة ..

وتركتها ومشيت ورجعت إليها بما يستعمل عادة من حوائج .. وألقت إليها بكلمات ثم تركتها وانصرفت لما كانت فيه .. وعاء من النحاس كبير تطبخ فيه حلبة بعسل وتضيف إليه السمسم ليكون طعاما واقيا من البرد للأولاد أيام الشتاء ..

ومنذ هذه الساعة والبنية تحاول أن تلبس الغراب ريش الطاووس .. حاولت أن تنسج لنفسها خديعة مادتها غفلة الأم .. فاستطاعت بشيء من الجهد أن تنسى الذى حدث تقريبا .. حتى إذا ما جاء النساء الثانى شارك القدر فى نسج الخديعة بالنسبة للثنتين فقد حدث فعلا ما ظنته الأم قد حدث من قبل فأصبحت « درية » فتاة .. فغطى الذى تصنعه الطبيعة على خطأ فعله إنسان ..

ولم تذكر هذا بالتفصيل من جديد إلا منذ قريب .. وعندما كانت فى الحمام فى البخار والدفء ورائحة الصابون يوم دفنت وجهها فى قميصها المعلق ..

فرغت من قصتها فى تلثم .. وجاءها صوت حقيقى أو موهوم مع تصفيق من جماعة فى مبنى العمارة على الشاطئ حول النار الموقدة تحلقوا بجلايب فى لون الأحجار : « ولدى .. والادى .. ولدى » ..

فرقدت على سريرها وغطت وجهها بذراعها .. فى الصمت الذى جثم كادت تسمع تنفس « سلامة » ثم سمعت صوت عود ثقاب يشعل وانتشرت رائحة التبغ ممزوجة بالكبريت ومد « سلامة » يده إلى الأباجور فأطفأه .. وهتف :

— ٥٣ —

— « درية » ..

بصوت مبجوح ردت :

— نعم ..

— في القطار رأيت امرأة .. آ ..

قطع كلامه .. أحس أنه يعذب طيرا يذبح فغير فكرته وعاد يقول :
— امرأة مع بنتها التي يبدو أنها عروس .. ففكرت فيك طويلا .. آ .. أريد
أن أقول ..

وعاد فسكت .. ومن خلال الظلام وتوهج جمرة السيجارة أحست أنه
مضطرب .. أحد الطرفين مناط للهجوم ، وعلى الآخر أن يتحمل لأن
الاحتمال وحده هو السلاح المقبول عند الطرف المهاجم .. وأنها تريد زمنا ..
— من الممكن أن تكون المرأة أما وزوجة .. ومن الممكن أن تكون زوجة
فقط و ..

كان ضوته كأنه خارج من قاع عميق لكنها صنعت في نفسها وجهًا ثالثًا
للقضية : « ويمكن أن تكون أما فقط » ..

— ممكن بالنسبة لنا أن نبقي زوجين فلا أحاول أن أصير أبًا ولا تحاولي أن
تصيري أما ..

— لماذا ؟! ..

قال في احتداد شديد :

— ليس هذا انتقاما لكنه احتياط ..

فردت بذل :

— ألم تصدقني يا « سلامة » ؟

فرد بحدة نسيية :

— الجدل غير محبوب في مثل هذه الأحوال ..

هتفت بدمعها :

— حسن .. أنا بهذا غير مذنبه وغير بريئة ..

— يجب أن تفهمي أن المشكلة غير عقلية لكي تهضم بهذه الطريقة ..

وسكت .. أخذت هي تفكر .. هل ستكون زوجة تحت التجربة أو عشيقه ؟ على أن هناك مرتبة أدنى من الأخيرة هي مرتبة « المأجورات » مع فارق في دقة الشعرة لكنه في حدة السيف .. فلا هي عشيقه ولا هي مأجورة ولا هي زوجة ..

كاد التنهد يخلع قلبها .. لكنها شعرت أنه من الضروري أن تذلل نفسها .. يجب أن تقبل الرجعة المجروحة أو البقاء الدليل وشعرت أن هذا الشاب إما طالب لذة وإما منتقم ..

— سنسافر غدا ..

صوت حاسم خال من الظلام .. مزق سكون الغرفة كرصاصة نقش على « ظرفها » مصير الفتاة ..

جاء الصدى من الخارج — وهما — صوت المجموعة المتحلقة حول النار .. تصفق .. تصفق .. تصفق .. دقة حزينة .. والصوت شرخه النوم .. والأذرع متداعية والأجفان نصف مغمضة والأبدان تحن إلى الأرض ..

صورة ودوامة .. لم يتحملها قلبها الغض .. وعندئذ همست في استحياء وهي لا تجد أثرا للرقيق .. وبدموع :

— سلامة .. موافقة ..

— اتفقنا على أن أكون هكذا يا ماما .. لا زوجة ولا صديقة ولا أم ولا حتى عشيقة .

هتفت الأم وهي تمسح عرقها في الشتاء :

— أفهميني أولا .. هل ستقيمين معه هنا في البيت ؟

فطحننت « درية » أسنانها وقالت بضجر :

— نعم .. ماذا كنت تظنين إذن ؟ في الخرائب .. عذاب .. افهمي ما أقول ..

أطرقت الأم قليلا ثم رفعت رأسها وسألت بهمس :

— يعني لا يريد أن يزرع الجنينة ؟

— تمام ..

أشارت الأم بيدها :

— مجرد نزهة ..

— تمام ..

دمعت عيناها .. وبدأت تميل إلى تصديق ابنتها فيما قصته عن مأساتها . فبعد أن يحكم بالبراءة تميل إلى تبرئة من اقترف . وقالت الأم لـ « درية » كلاما آخر .. معناه أن المستقبل كفيل بأن يحوله من ناقم إلى متسامح ثم أسير لعاداته وربما إلى محب .. وكانت في هذه الوهلة تذكر حادثة معينة .. عرفتها ..

حادثة تاجر في المدينة مر بهذه المراحل مع خادمة شوهاء .. لكن « درية » جميلة .. عليها أن تتحمل حتى تستتب العادة وبعد ذلك ربما مضت الأمور في طريق لا يخطر على بال ..

غير أن الوضع بين العروسين كان مخالفا لما ذكرته الأم من ناحية لم تفتن إليها .. ذلك أن « درية » عندما يستتب لها الأمر فإنها لا بد طالبة ثأرها .. ولن تطلبه بالمعنى المألوف المشهور .. معنى التربص للغدر . بل لا بد أن تدرك أنه من المحال أن تنسى فتاة ، هذا موقفها ، كل ما حدث لها في الليالي الأولى التي كانت تتصور أنها ورد وحناء فإذا العذاب في سرير العروس .. ثم .. هو الآن .. آه ..

إنه منذ اللقاء الأول بعد ان اتفقا على الوضع الجديد أصبح يمثل في نظرها كائنا غريبا .. كائن يأكل منها بنهم ثم يتلوى بعد الطعام .. يدخل بعوده الطويل ووجهه المنتفخ تفوح منه روائح شاذة عقب عودته من الخارج .. ثم يبدأ في مناغة دمية على حاجر مرآة الزينة في حجرة النوم .. يصب عليها كل ما في نفسه يوما بعد يوم .. « جميلة والله العظيم .. أجمل ما في الدنيا .. لا ينقصك شيء أبدا .. وحتى هذا الشيء الذي نقصك قالوا إن أمتنا حواء كانت بدونها .. ويجب أن نصدق » ..

ويهمهم بالضحك وينظر إلى الدمية كأنه يراودها .. يتفرس ملاحظها وتفاصيل جسمها كأنه بانتظار الرد .. وتطرق « درية » ففكرة فيما يقول : « هل كانت حواء بدون هذا الشيء حقيقة ؟ ولماذا لا يكون هذا صحيحا ما دام أنه لم يكن في الدنيا سواهما .. فمن كان الله يريد أن يحميها حتى يتزوجها آدم ؟ » .. ثم همس بصوت يكاد يكون مسموعا : « لماذا لم نرثها فنستريح » ..



— ٥٨ —

ويتمدد هو في الفراش ثم يسأل :

— فيم تفكرين .. هل صدقت حكاية أمتنا حواء ؟!

— لا ..

— كذبتها ؟

— لا ..

— لا صدقتها ولا كذبتها .. انظري كم نحن محظوظون نحن الرجال ..

نقترب الآثام ونظل عذارى ..

— إنك تعذبني ..

فيصرخ :

— أطفئي النور ..

وبعد فترة من الوقت يستسلم للنوم وإلا فإنه ينهض من فراشه وهو في غاية من الضجر يبحث عن طعام بنفسه وقد أشعل كل الأنوار ، ثم يجلس على مقربة منها ليأكل وحده وهو يغني إحدى الأغاني الوقحة من تلك التي يرددتها عادة مغنيات الأفراح ذوات الشعر المصبوغ والأسنان الذهبية على نغمات الأوكريديون والدخان الأزرق ..

عندئذ تطوف « درية » بروحها حول كل عذراء تحلم في مخدع فترثي لها أو تدعو لها .. لأن الشراب الذي تسقاه لم يثر في نفسها إلا الاشمزاز .. وفي الصباح .. أو في الليل .. عندما تكون وحدها تحن إلى شيء مبهم .. شيء لا تعرفه .. يبدو أحيانا في صورة حبيب يمسح بكفه على ذلك العذاب .. وأحيانا يبدو في صورة أكثر غموضا وبعدا .. صورتها وهي بين مجتمع لا يعرفها فرد من أفرادها في مدينة كبيرة .. وأحيانا عظمى وهي ممسكة بعنق

شاب لا تكاد تذكر ملامحه .. وتضغط عليه حتى تزهق روحه ..
كانت تأكل على منضدة صغيرة وهذه الأفكار تراودها ذات يوم ، فألفت
جريدة قديمة تقص قصة العمدة الذى كان يلقي كل جريمة قتل تقع فى القرية
على عاتق رجل يختاره من القرية إما ضعيف وإما عدو ، ثم يلقى له الجريمة حتى
لا يفصل من « العمدة » .. وبلغ به الأمر ذات يوم بعد أن مدحوه على تزويره
أو نسبوا إليه مهارة الحكام النادرة ، بلغ به أن اعتقد هو نفسه أنه فى كل مرة
يضع يده على المجرم الحقيقى ..

وتمت « درية » أن تصل إلى هذه المرحلة من اليقين .. إنها لا تعرف ذلك
الشاب .. لكن ليتها تعتقد فى شخص ما إنه هو الذى « سرقها » .. إنها تريد
أن تفعل ما فعلته تلك الأم التى غرق ابنها ولم تعثر له على جثة فبنت له قبرا
أخذت تتردد عليه ، وشيئا فشيئا اعتقدت أن رفات ابنها فيه وانتهى الأمر .
ووجدت الدموع وطنا بعد الغربة .

« وكأن مآسينا لا بد لها من شخص معين نصب عليه نقمتنا » كذلك
فكرت « درية » . بل وتصورت ماذا عسى أن يصنع « سلامة » كل ليلة
يتمتع بالقتيلة .. « درية » .. ثم يعيد قتلها .. ثم يعيد الكرة من جديد — فما
عسى إذن أن يفعل بالقاتل الحقيقى ؟!

وها هى ذى الآن فى الشهر الثانى من حياتها الجديدة .
بدأت هى تحس بالأمان الذى طلبته أمها لنفسها ولها .. ذلك الأمان الذى
يجعل أخواتها فى حرز من عثرتها الشخصية .. عند ذلك أخذت تسأل
نفسها : « لماذا لا أعود إلى بيت أبى ؟! .. أو لماذا لا أخرج وأعمل فى مشغل
تطريز ؟! » ..

— ٦٠ —

غير أنها كانت تشعر في قرارة نفسها بشعور لا يمكن تعليله .. تشعر بأن عليها أن تنتظر لأن العلاقات النفسية بينها وبين البيت الذى ولدت فيه أصبحت واهية ، وهى بطبيعتها — هذه العلاقات — غير صالحة لأن تعيدها الفتاة من جديد .. ثمرة قطفت من شجرتها بعد النضج فلا سبيل إلى إعادتها للغصن ..

وكانت « درية » فى هذه الفترة تشعر بأن النعمة فى قلب « سلامة » وعلى لسانه قد بدأت تفتر نوعا .. حتى أنه حدث فى إحدى الليالى أن اعتذر لها بطريقته عن عمل غريب حين دخل من الخارج منتشيا وقد وضع يده فى جيب سرواله ثم وقف أمامها مازحا يحدثها ، وعيناه على الدمية التى شعرت « درية » — منذ الآن — وكأنها ضربتها وقال لها :

— إن خمنت ما فى جيبى كان لك كله ..

وكان عليها أن تجاريه ، فأخذت تقول :

— لوز ١٩

— ...

فضحكت وقالت :

— جوز ١٩

قهقه :

— لا ..

— حمص .. وهذا آخر ما عندى ..

فأخرج يده مقبوضة ووضع فى كفها بضعة من القروش ، فلما بسطت كفها وحملت فيها فهمت قصده الذى عبر عنه بنظراته وضحكاته المصحوبة

بسعال خشن وبصقات في منديل ..

وبعثرت « درية » كل القروش على الأرض .. القروش « المثقوبة » كلها من الوسط والتي أوحى بما يريد أن يقول لها ..

فأخذت القروش تجري في كل اتجاه ككائنات صغيرة أصابها الذعر وكان مشغولا بخلع ثيابه ومستغرقا في ضحكته .. فلما فطن إليها وقد جعل الغضب عينها مثل عيني ثمرة أمرها أن تجمع النقود من على الأرض .. فهزت رأسها في لبااء .. فقال لها بهدوء يحمل المعنى القديم :

— نعمة الله تبعثر على الأرض ؟! .. لماذا غضبت من هذا ؟! .. لأنها قروش مثقوبة ؟! .. كلها عملة وتمشى في السوق ..
ونام هادئا وظلت مؤرقة حتى الصباح ..

وفتحت النافذة التي لم ترقها أحدا طوال هذه الشهور ، كانت في البيت المجاور عبر ممر غير واسع .. وظهر فيها شبح امرأة في يدها خرقة تنفض بها الغبار عن خشب الشباك .. وأخذت « درية » تتأملها .. كانت سقيمة الجسم بيضاء نحيفة لكن ضرباتها بادية القوة مما يدل على أنها تحيا على أعصابها .. وعلى وجهها استقامة . المرأة منهمكة في عملها حتى كأنها غير شاعرة بوجود أحد حولها .. لكنها توقفت برهة وحملت في نافذة « درية » ، فلما وقع بصرها على وجهها الحلو بدت فجأة وكأنها سعيدة .. زابت وجهها الحدة الظاهرة التي كأنها نشأت من طريقة العمل .. وولدت على فمها ابتسامة لم تمكث طويلا أو مات بعدها برأسها محية « درية » ..

وبادلتها التحية .. وعندئذ علقت المرأة خرقتها على حلقة « السنبولة »

— ٦٢ —

واتكأت على مرقعها وأطلت تحملق فيها كقروية تنظر للمرة الأولى إلى زينة عروس مدنية :

— مبروك يا عروسة ..

وعجبت « درية » .. عجبت وتأملت .. لكنها سارعت بالرد عليها :

— الله يبارك فيك ..

ومدت يدها إلى مجلة قريية حملها زوجها معه ذات يوم تريد أن تتشاغل بها ، لكن عيني المرأة كانتا من الصراحة والقوة بحيث أجبرت « درية » على عدم الانصراف وفي العينين نظرة إعجاب كأنها من عين رجل فأهدت إليها بعض الرضا ، من أجل هذا أخذت الفتاة تحملق فيها وهي مبتسمة .. كأن الشيء الذي سلب منها بيد الرجال رد إليها بنظرة إعجاب من امرأة .. ولم تترك الجارة لها وقتا للتساؤل عن أثر نظرة رجل إليها إذا كان فيها حب وتكريم ما دامت تحيا بهذه النفسية .. نعم .. لأن هذه الجارة انسابت تقول :

— يظهر أنك وحدك باستمرار .. تحملت أنا وأنا صغيرة مثل هذه الفترة بمل .. كان زوجي يخرج إلى عمله ويتركني أنظف الشقة ثلاث مرات في اليوم لأضيع الوقت حتى خلقت أول طفل ..

وعندئذ سقطت الخرقه من فوق الحلقة المعلقة عليها فأعادتها إلى وضعها الأول ثم هتفت تسأل :

— وأنت ؟ .. حتى الآن ؟ .. هه ؟ .. !

سألها هذا السؤال وهي منتصبه واقفة وتشير إلى بطنها وتغالب ضحكة لو انطلقت لحملت مرح سن العشرين مع أنها فوق الأربعين بكثير .. فأظلم وجه الفتاة وأشارت برأسها نفيا فقالت المرأة :

— تمتع بشبابك .. إنهم يسلبوننا المال والصحة والعمر ..
ثم أسندت رأسها الصغير على كفها الدقيقة وهي مخنية في النافذة وبدأت
عليها ظلال الحزن كأنما طافت بها ذكرى .. سرحت وصمتت ثم أسبلت
أجفانها كمسافر أخذته سنة من النوم ، وعندئذ ارتفع صفيح حادآت من ناحية
السجن فانتفضت وأمسكت بالخرقة وأشارت إلى الفتاة وإلى السجن بعد
ذلك :

— إنه هناك ..

— من ؟

— زوجي ..

فقبرت فمها حين أدركت أن هذا هو سبب حزنها الطارئ ولم تملك أن
رفعت صوتها لتسأل المرأة :

— بأى جريمة دخل السجن ؟

ردت عليها وهي تضحك ..

— جريمة العيش ..

— سرق ؟!

فردت والضحك يقطع كلماتها ..

— لا .. إنه سجان .. لكن عمله لا يخلو من الجرائم .. عن إذنك لأخلص

من عملي قبل أن يعود .. آه .. لماذا لا تأتين لزيارتنا ؟

— حاضر ..

— تشرفي ..

أقفلت النافذة وتركتها في مكانها تلتفت ..

وعندما انتهى الحديث بين المرأتين كان هناك حديث أكثر أهمية يجري بين « سلامة » ورجل من ركاب الدرجة الثالثة في قطار الظهر القادم إلى القاهرة ..

لم يكن في القطار موضع لقدم .. أكبداس من الأمتعة والأطعمة والناس .. ولم يخل الأمر من وجود بعض الطيور والحيوانات الصامتة كالآرانب والحمام في أسفاط غطيت بالحشيش .. ولأن القطار قطار ركاب ولتقارب المحطات فإنه كان مطمعا للهاربين من الأجرة .. دائما ..

كان « سلامة » يتجول في عربات الدرجة الثالثة بعسر شديد وتجادل ألف مرة مع الفلاحين حول أولاد معهم في سن الحادية عشرة يصبر آباؤهم على اعتبارهم أطفالا معفين من الأجرة ..

وكان منظرهم يبدو مضحكا حين يتكور الواحد منهم في جلسته ليبدو صغير السن .. حتى إذا ما طلب منه الكمسارى أن يقف ضغط أبوه على كتفيه لينمعه وهو يحلف أنه في السادسة من العمر وأنه والد سنة موت جده كأن هذا الحادث يؤرخ به ..

وعلى هذا المنوال استمر عمل « سلامة » حتى وصل به المطاف إلى رجل قمىء يلبس جلبابا من القطن أكله الغسيل ، ليس تحته صدرى وهياته في جعلتها تدل على العوز منزو في ركن .. تبرز عظمتا ترقوته وعظمتا خديه .. وعينه العوراء علامة ظاهرة لا يخطئها بصر .. وقلنسوته لا تغطي رأسه لأن له جيينا بارزا في وسطه ندبة .. ولم يكن « سلامة » قد سبق أن رآه لأن كثيرا من الوجوه تعرف في القطارات حتى تؤلف مثل وجوه الباعة وأصحاب الاشتراكات ..

وعندما وقع بصر « سلامة » على وجه هذا الرجل أدرك بخبرة الموظف الذى مارس هذا العمل بضع سنوات أن هذا الرجل مرتكب لمخالفة أيسرها أنه لا يحمل تذكرة سفر ..

وتقدم منه وفي يده مقراض التذاكر وأشار به إليه حتى كاد يلمس جبينه وحقق فيه بعينه القويتين وهو يشير بكفه الضخمة ..

أخذ الرجل ينظر إليه بعينه السليمة لأن الأخرى شبه مقفلة بعملية لا يبدو من مقفلتها سوى شريط ضيق منفر .. أما العين الأخرى فقد حملت سر العينين معا كأن وظيفة المفقودة فى التعبير أحييت إليها بحكم الطبيعة .. فى لون الكهرمان .. وفى نظرتها قوة « النبلة » .. لكن الرجل كان خائفا .

— تذاكر .. أنت يا راجل ..

— حاضر يا سيدى ..

قالها بانكسار وهو يخفى رأسه بين كتفيه كأن حجرا سيسقط فوقه وأخذ يفتش فى كل مكان من ملبسه يمكن أن يضع فيه تذكرة .. حتى القلنسوة خلعها وبحث فيها . على طريقة الريفيين الذين يحملون تذاكر السفر بين قلنسواتهم وفروة رموسهم ..

طال البحث وكان فى الحقيقة متعمدا هذا .. وكان ممكنا أن يتركه « سلامة » وينصرف إلى غيره ثم يعود إليه لكنه لذه أن يلمسه بنظراته .. وتحول هذا الرجل ابن الأربعين إلى فأر صغير أحاطت به المهالك .. فنهض واقفا وفتش أحد جيوبه وأخيرا شق وزفر :

— أشهد ألا الله الا الله ..

— وجدتها !؟

(البيت الصامت)

— ٦٦ —

— نعم .. يا سيدى .. تفضل ..

وقدما إليه بيد مرتعشة :

وشد ما كانت دهشة « سلامة » عندما وجد أن ما قدم إليه ليس تذكرة
ولا نصف تذكرة بل ثلاث عشرة تذكرة فيها النصف وفيها الكامل .. فعاد

يحملق إلى وجهه فى تساؤل :

— كل هؤلاء معك ؟

فانطوى فى ذل وبطريقة لا تثير الشفقة بقدر ما تثير الشكوك :

— نعم .. يا سيدى .. وحياة رسول الله ..

فأجاب « سلامة » مسرعا :

— طيب طيب .. لا داعى للحلف فهم لا بد أن يكونوا معك .. لكن أين

هم ؟!

فتناول بقامته القميئة وأخذ يفتش فى العربة ثم قفز ووقف على الكرسي
وقال وهو يلث ويرتعش :

— بعضهم فى .. هذه العربة .. وبعضهم ..

— عال .. فى العربة الأخرى .. تعال معى لأراهم ..

وأمسك بيده من رسغه .. أحس كأنه أمسك قطعة من الخشب الصلب ،
وأخذ الرجل يتخطى الناس والأطفال ويعد بين كل بضعة كراسى .. بنات فى
سن المراهقة والبلوغ وبنات صغيرات .. وصبيان لا يتجاوز أكبرهم عشرة
أعوام .. كلهم فى ثياب الفاقة وعلى وجوههم خوف يبلغ أحيانا حد الفزع ..

سأله « سلامة » مندهشا :

— من هؤلاء ؟

فأجاب متلعثما :

— عمل الله يا سيدى .. قدرك الله على عمل الطيب .. مسافرون لأقاربهم
في القاهرة .. لا يعرفون السفر وحدهم ومعهم متاعهم ..
فألهم « سلامة » شيئا جديدا .. فأمسكه من يده :
— تعال .. عد قطع المتاع الذى معك ..
عندئذ زاد ارتباك الرجل وبدأت عينه السليمة فى التألق ثم ظهرت فيها
الدموع .. لكن « سلامة » انصرف عنه بقلبه كله .. كان يريد أن يكتشف
ما وراء هذه الشخصية ..

فقال له الرجل وهو يتعثر وراءه :
— ليس معى أكثر من ست قطع ..
— إذا ظهر أنك تكذب فسألفق لك تهمة ..
« وهدد بنظرته وقبضته » ..
— تعال ورائى .. عد ..

كان معه أربعون قطعة كلها أسفاط وققف مليئة بالطعام .. وفهم بحكم
مهنته ماذا يمكن أن يكون هذا الرجل .. عندئذ أفهمه أن هذا كله سينقل إلى
حيث يوزن ويعتبر شحنة فى قطار الركاب فضلا على أن بعض البشر الذين
صحبهم معه لا بد أن يقطع تذكرة كاملة لا نصف تذكرة ..
بدأ يرد بتلجلج كأنه على وشك أن يغمى عليه ويحلف بكل المقدسات أنها
عملية لله .. ثم مال على يد الكمسارى يقبلها .. لكن رد الفعل كان عكسيا
فقد كره « سلامة » هذا التذلل واستمر فى التضييق عليه فما كان منه إلا أن
قال له :

— طيب .. ساعدنى هذه المرة وأعيش خادما لك .. من أجل رسول الله .
وبسرعة شمر أذيال جلبابه المشرشر الذيل من القدم وكشف عن ساقه
المعوجة الغجفاء وهو يقول بصوت باك :

— كسرت رجلى هذه وأنا فى زيارة النبى .. ربنا يكتبها لك ..
وضحك « سلامة » والركاب وتسأل بعض الشبان عما إذا كان يدعو
له بالكسر أو يدعو له بالزيارة .. لكن الرجل كان فى معزل عن كل هذا
.. ظل فى أعماق دوره لا يشعر بشيء سواه وانتصب من انحنائه ثم شمر
عن ساعده ورفع أطراف كفه المشرشر عن ذراع مهزولة .. وقال
لـ « سلامة » :

— وهذه اليد كسرت وأنا أحمل الأحجار لأرفعها لله ..
رد « سلامة » فى دعاة وهلاء :

— وهل الله فى حاجة إلى أحجار !؟

— كنت أساعد بعرق ويدي فى بناء مسجد القرية ..
وتشاغل « سلامة » بإشعال سيجارة لكن الرجل أقدم على عمل أكبر
إذ جلس على بعض الأمتعة المرصوفة فى الطرقة وكشف ظهره بسرعة فغطى
جلبابه رأسه ووجهه كأن مظلة سقطت عليه وكان يهتف بصوت حزين من
غطائه :

— هل ترى الكى الذى على ظهري .. انظر إنه علاج بسبب الأحجار ..
أحجار المسجد فقد مرضت بعدها .. ولولا الكى لـ ..

وكانت هذه الحركة سببا فى الهياج والضجيج والضحك ، وعندئذ لان
قلب « سلامة » وتركه ومضى تلاحقه دعوات من الرجل محفوظة كأنها

— ٦٩ —

« أوراد » .. وفي محطة القاهرة لاحقه يطلب منه أن يجعله خادما له فهو أخلص
إنسان في خدمة الناس ..
فرد عليه سلامة محرجا :
— وماذا أطلب منك .. إني ..
— زبدة .. خدام .. مرحرح .. آ ..
وبدا عليه أنه سيقول أكثر لكن « سلامة » قال له :
— هل الزبد عندكم رخيص ؟
— أرخص من التراب ..
— حسن .. أريد منه أربعين رطلا ..
— خدامك .. والعنوان ؟
وتردد « سلامة » قبل أن يجيب لكنه ما لبث أن كتبه له .. ثم غاب كل
منهما في زحام الناس ..



لاحت لها في النافذة مرة أخرى . ولم تدر لماذا انجذبت إليها خصوصا بعد أن زارتها في بيتها من عدة أيام .. كانت هذه المرأة في الحقيقة أشبه بسند لكل معارفها .. يثونها الشكوى ويحلون بواسطتها الأزمات الاقتصادية .. وبها كذلك تتم الزيجات بين شباب الأسر التي تعرفها ..

وكانت « درية » في ذلك اليوم قد استأذنت لزيارة بيت أبيها . وهناك التقت بالذكريات الأولى ثم ودعتها وانصرفت .. وعندما وصلت إلى الميدان ورأت البيوت إلى اليسار لاح لها بيت هذه السيدة لكنها مرت .. عبرت على الممر الفاصل والذي يقع فيه دكان صغير مبنى تحت نافذتها تفوح منه رائحة السمك ودكان صغير آخر شغله أحد الرفائين .. ثم .. دلفت إلى باب بيتها .. لكنها عن لها أن تعود .. وأن تمر على هذه السيدة التي دعته إلى زيارتها بالعبارة والنظرة .. فصعدت سلما فسيحا تزين مسقطه قبل كل طابق نافذة واسعة .. يزجاج فيه ألوان الطيف نفخ فيها روحانية إذ ذكرها بزجاج مسجد « البدوى » من الداخل حين كانت تذهب لزيارته ..

وقبل أن تصل إلى الباب الذي تقصده قابلها على السلم رجل عرفت هيأته من لبسه وسمته .. فقد كان زيه الرسمي يدل على أنه من رجال السجون .. أما سمته فقد كان آية في الصرامة خصوصا ذقنه العريض وجبينه الضيق وصفحة وجهه السمينة الملمعة .. وعرفت « درية » أنه زوج هذه السيدة ..

وظلت توازن بين السماحة والقسوة اللتين يجمعهما فراش حتى طرقت الباب ..

وهللت السيدة حين رأتها .. كأنها لم تصدق عينها .. كأنها لم تكن متصلة بأحد قط .. لكن الدافع الحقيقي لهذه الصلات كان لها لذة شخصية نشأت من طبيعتها الريفية التي تميل للخدمة « الجماعة » ثم تطورت ونمت بالذكاء والحكمة والجرأة وسعة الوقت .. فمن يدها تم ادخار مبالغ جهزت بها عرائس وحج بها ناس وكفن بها موتى وأكمل بها مصروف الشهر .. وأحسست « درية » وهي تدخل بخفقة قلب غامضة .. ترددت فتهتفت المرأة في تشجيع :

— ليس في البيت أحد يا عروسة .. أهلا بك .. عمك أبو اليزيد نزل حالا ..

هل قابلتك على السلم .. مؤكد .. تعالى فر بما كنت محتاجة إليك .. وكأنا لذلك « درية » أن يحتاج إليها أحد .. ودخلنا إلى الحجرة التي تطل على الممر .. واقتربت « درية » من النافذة بطريقة ليس للإرادة فيها دخل لتلقى نظرة على شباكها هي .. لذلها ما يلذ للناس حين يرون بيوتهم من نوافذ بيوت غيرهم ويطلون على أولادهم وهم في الشارع ؟

وخيل إلى « درية » أنها رأت بيتا غير بيتها .. وجلست على كنبه قريه من النافذة والمرأة إلى جوارها .. تحسست شعرها بإعجاب .. ثم ربت على كفها الكنزة الضيقة ثم حملت في أردافها الكبيرة بالنسبة إلى عودها وابتسمت وهي تذكر أيامها الماضية قبل أن ينوبها النزيف الذي ظل يطاردها طول شبابها وكان سببا في إجهاضها مرات عديدة .. ثم قالت وهي تربت ظهر الفتاة

— كنت أتمنى أن تكون لى بنت مثلك ..
ابتسمت « درية » وقد احمر وجهها وبرقت أسنانها تحت الضوء
المنسكب :

— ليس عندك بنات ؟
— واحدة تزوجت لكنها ليست مثلك .. وواحدة ماتت .. وأجهضت
أربع مرات .. وسمير ابنى فى الرابعة والعشرين الآن ..
— الحمد لله .. يبدو أن أصلكم من الريف يا خالتي
ضحكت المرأة وهى تقوم إلى مكنة خياطة فى ركن مواجه عليها قماش لم
يقص بعد وجلست تقص وتتكلم .. لكن ما لبثت « درية » أن لاحظت أنها
غير كثيرة البراعة فحلت محلها .. جلست على كرسى المكنة وجلست الأم
تجاهها .. كانت تقص لابنها قماش « بيجاما » تفصله على أخرى قديمة ..
وكانت الأم تتكلم : « طبعاً من الريف .. وكنت حبيبة ألى لأننى كنت
الوحيدة عنده .. هل أنت كذلك ؟ ..
فردت وهى مطرقة تعمل :
— لا ..

فاستطردت المرأة وكأن أحدا لم يقاطعها :
— وكنت أساعده فى كل عمل .. وكان هو يعمل كل شىء .. يزرع
الخضروات والفاكهة فى أرض غير واسعة .. وينسج السلال والحصير ويفتل
الحبال ويصلح مضخات الماء .. ويرمم المباني الريفية ويعالج الماشية ويحفظ
القرآن ويقرأ الأوراد فى الفجر ويحضر مجالس الصلح فى القرية وكثيراً ما كان
يقرض الأغنياء مع أنه رجل فقير ..

— غريبة ..

وسألت أم « سمير » :

— وما صنعة والدك ؟

— تاجر خردوات ..

فاستطردت وكأنها لم تسمع :

— وهل حزن يوم زواجك كما حزن أبى يوم زواجى ؟

فردت فى تلعم !

— آ .. حزن بعد .. « وخافت فأكملت » زفافى .. غرق فى أحزانه من

.. من .. الديون ..

— ما دمت سعيدة فذلك لا يهم ..

— سعيدة ..

رأت « درية » أنها أمام عينين تكادان تكشفان الغطاء عن سرها ، وشعرت كأن سرها على طرف لسانها هى من طول ما حدثت به نفسها وفكرت فيه فى وحدتها والعذاب يفضى إلى الاعتراف .. وربما يكون العذاب من شخص ويكون الاعتراف لشخص آخر .. لذلك فإن الفتاة تحصنت بالضد .. بابتسامة الهزيمة التى تنسى على الشفتين بمرور الأيام .. ثم كأنها فطنت أيضا إلى أن كثيرا من الناس يخافون التعساء كأنهم يجرون غيرهم معهم .. وما لبثت نظرة المتأمل التى ألقها « أم سمير » على الفتاة أن اختفت وحلت محلها النظرة العادية وأخذت تقول :

— وعندما زوجت بنتى استرحت .. حزننا بسبب ذلك ما يلبث أن

يزول ..

— ٧٥ —

فردت « درية » لتغير مجرى الحديث :
— العاقبة عندكم يا خالتي ..
سرحت المرأة بعينها قليلا قبل أن تقول :
— ولأولادك ..

حز ذلك في قلبها وتذكرت لياليها .. إذ حولها ذلك الزوج إلى حديقة
للنزهة .. لنزهته الشخصية .. فليس هناك ثمار .. وتذكرت وهي ممسكة
بالمقص الذى يئز في يدها وهو يشق القماش قول أمها لها ذات يوم : « إنه من
خلال ما يحدث بينها وبين « سلامة » ستولد علاقات قلبية غير مقصودة ،
لكنها تحس أنه ينساها كما ينسى المائدة حين ينصرف عنها بعد الأكلة .. فإذا
كان هناك علاقة تربط ما بين المعدة والخوان الخالى كان هناك علاقة بينها
وبينه .. وبدأ لها كأنها تراه .. وجهه المكور المائل إلى الصفرة وخديه المتهدلين
كعخدَى جرو وشاربه الأسود وشعره القارى وحواجه فى لون شعره .. ثم
رفعت وجهها لتحدث الأم فإذا بها تهجد صورة معلقة على الحائط لم تفتن إليها
من قبل .. هى صورة لـ « سمير » .. أشارت الفتاة فى استحياء إلى الصورة :
— هو هذا ؟

— نعم .. « أووف » ..
— ما له ؟!

— عنيد .. إذا اقتنع بأنه يمشى على السماء والأرض من فوقه فلا يمكن أن
يتزحزح .

ضحكت « درية » وغمغت :
— حتى زوجته ؟!

غمغمت الأم بضحكة ونفت بشدة لا تخلو من تهكم !

— لا .. لن يتزوج قبل انتهاء مشروعاته ..

— وما هي ؟

فقالت وقد تدفق ضحكها :

— تغيير نظام الكون .. كان أبوه يرجو له أن يدخل كلية الشرطة ليغير

نظام الكون .. ثم تمنى هو أن يدخل كلية الطب لنفس السبب .. وأخيرا دخل

مدرسة الخدمة الاجتماعية ولا يزال متأكدا أنه سيغير نظام الكون ..

عندئذ سرحت « درية » تصورت أن حلما من هذا القبيل قد تحقق وأن

نظام الدنيا قد تعدل بطريقة لا تجعل مثلها « جانية » .. ثم خطر على بالها سؤال

لم تجادل نفسها في أن « سمير » هذا يعرف إجابته لأنه على وشك أن يكون

أخصائيا اجتماعيا وقد كبر كما قالت أمه لأنه رسب في الثانوية عدة مرات

لنشاطه في مختلف الميادين غير ميدان الكتب ، وقاومت نفسها أن تلقى به

للأم .. وهذا السؤال الذي فاه به « سلامة » في إحدى الليالي التي لم يكن

يبحث فيها بالرغبة ولم تكن هي تعنيه تبعا لذلك .. كانت تريد أن تعرف :

« هل كانت حواء حقيقة مخلوقة بدون هذا الشيء الذي نقصها ؟ وإذا كان

الأمر كذلك فلماذا لم يرثها بناتها ؟ » وسرحت تفكر : هل ابتهل أحد أبناء

آدم إلى الله بعد أن تعددوا أن يضع خاتمه على الفتاة ففعل ؟ .. ولماذا قبل الله

دعوته ؟ .. هل لأنه يعلم أنهم بدون هذا الخاتم سيكون أوراقا غير

رسمية ؟ ..

— معذرة يا خالتي فقد كسرت الأبر :

— لا يهم .. عندنا أبر كثيرة ..

ثم عادت الأم وعادت إلى قصة « سمير » :
 — لو رأيت مرة كيف يجادل والده .. لقد خاصمه أبوه شهرا لأنه قال له
 إن وظيفتك من ضمن الوظائف التي تتلف الناس .. فرد عليه أبوه غاضبا وقد
 شهر في وجهه تمثالا نخته مسجون : « لكن من نقود هذه الوظيفة تتعلم
 يا مغرور » .. فhez كتفه وقال له : « لا تغضب فليس هذا ذنبك فأنت
 والمدرس أمامكما جدول ومنهج » .. وضحك ابني لكن والده خاصمه بعد
 ذلك .. سألت « درية » لكي تتدخل في الحديث فقط :
 — هل تدللينه يا خالة !؟

فلمعت نظرة الأم من عينها الضيقتين وأجابت تؤكد :
 — عمرى .. لكنى فقط أرى فيه أنواعا من السعادة لا أعرف سرها ..
 كانت الأم ترى في وسامته ورقة إحساسه واندفاعه في التعبير عن كل
 ما يشعر به عوضا عما فاتها من زوجها ، وكانت تحس أن سؤاله عن مصدر كل
 رزق منوط بالشبهة التي تقوم في نفس الابن عن سلوك أبيه في السجون ..
 خصوصا بعدما اتصل عن طريق دراسته بالنزلاء وعرف أنواعا شتى من
 مآسهم .. وأخذت الأم تتذكر ليلة شاتية جاء فيها ابنها من القاهرة ليزورهم
 كما يفعل في كل شهر .. وكانت مدينة « طنطا » غريقة بالمطر وسحابها
 لا يفارق السماء ..

وارتفع صوت « درية » على أفكار الأم :
 — شتاء هذا العام أقل بردا من العام الماضي ..
 — تمام ..

وعادت « درية » تقص القماش والأم تتذكر :

— دخل « سمير » مبلول الثياب .. خلع ملابسه وجلس مع أبويه أمام المدفأة .. أبوه يأكل فولا سودانيا .. يدفئ حباته على الجمر والأم تخطط على يدها وتطرز ملابس جديدة لمولود بنتها المرتقب .. وبعدهما جلس « سمير » عادوا إلى ما كانوا فيه من حديث .. فذكر الأب مأساة السجين الذى ضبطوه وهو يهرب فأطلق الحارس عليه النار من الخلف فخرجت الرصاصة من فمه .. وثار جدال بين الأب والابن عن جريمة الهرب ، حين قال « سمير » : معاملة الناس لهذا الرجل فى خارج السجن هى التى أدخلته السجن .. ومعاملة الناس له فى داخل السجن هى التى أجبرته على الهروب منه .. والرصاص هو الذى حل مشكلة حياته ولكن بقسوة ..

صرخ الأب قائلاً : وتقول بقسوة ؟ هل تريد أن تعيده إلى العنبر وأمامه موسيقى .. أنت مخرف .. ماذا تتعلمون ؟! ..

وسحب الأم من أفكارها صوت « درية » نديا مشوبا بتعب :

— يقولون إن العنيد غالبا ما يكون ذكيا .. مثل أخى سيد ..

— من أجل ذلك هو يرى أن كل الناس لا يفهمون ..

— إلى هذا الحد ؟

— ربما كنت مخطئة .. عندما ترينه تحكمين عليه .. كم الساعة الآن .. آه

.. ربما كان فى القطار الذى وصل الآن إلى المحطة ..

وكان سلامة فى قطار آخر لن يعود منه إلا آخر النهار . ولذلك قررت

« درية » أن تبقى حتى ترى هذا الشاب ..

وما لبث الجرس أن دق .. وفتحت الأم ومشت أمامه بخيلاء من تعتر

بأبنها .. دخل وسلم .. ثم جلس على الكنبه على مقربة من الصورة المعلقة على

الحائط وتم التعارف ثم ظلل الصمت .. أبدى « سمير » تعباً متكلفاً ليحظى بالجنان المألوف كما نفعل دائماً عند لقاء أمهاتنا .. ثم قام وخلع ثيابه وعاد فجلس .

كانت « درية » مشغولة بخياطة البينجاما .. نظر إليها ثم قال في دعابة :
— وهل هذه هى تحية الضيوف يا ماما .. تحيتهم عندنا متاعب ؟
همهمت « درية » وهى تحتل النظرات إليه من خلال انكباها ؟
— تعبكم راحة .

وفكرت وهى توازن بينه وبين صورته فى أيهما أحسن ؟ كان هو بلا شك .. مجموعة من القوى تؤدى حركة ينقصها مدير .. حركة مرور بلا نقطة مراقبة .. عرضة للحوادث .

فهو على ذكائه قد يكون مهملاً .. وعلى تكوينه الجسمى الكامل يبدو رقيقاً .. بشرة وجهه البيضاء الصفراء ورأسه الكبير ووجهه الواضح وشعره الخشن الفاتح المقصوص قصيراً وجبينه العريض ذو الخليجين .. والناصية من الشعر .. وشفاته الغليظتان وفخذه المحشوران فى سراويله .. كل هذا يضيف عليه منظراً غريباً خصوصاً عندما أسبل جفنيه فى حالة استرخاء من التعب .. وتمنت « درية » شيئاً .. كان فى قرارة نفسها عذبا وعذاباً مثل كل فكرة خطيرة أو شاذة يخفيها صاحبها عن الناس ..

تمنت أن لو كان هذا هو الذى قابلها فى آخر طابق من عمارة السيدة زينب .. وتأوهت وهى تنظر إلى الخطوط المتوازية التى لا تلتقى فى قماش البيجاما ذات اللون الأزرق الصافى ..

ولم يكن مصدر هذه الأمنية هو الفارق الواضح بين الشاب الأول

والشاب الثانى .. بل كان شيئاً أهم ربما لم تفهمه « درية » هو أنها تريد لما سأتها نقطة بدء واضحة كالتى تذهب لتناجى القبر .. وليس هناك فرق فى هذه الحالة بين أن يكون الشاب بقميص من الحرير أو فائلة من القطن داكنة اللون .. وأخذ تمنى هذا يتحول إلى إحساس نفسى ثم شبه جسمانى حتى كادت تشعر أن « سمير » قام من مكانه وجلس إلى جوارها ثم ألقى ذراعه فوق كتفها .. وارتعدت قليلا لكن حركتها على مدوس المكينة كانت كفيلة أن تغطي على كل رعشة .. تلك الحركة التى أتاحت لها أن تظهر — بلا قصد — رشاقة قدما الصغير ..

وقالت الأم بعد فترة :

— كيف حالك يا « سمير » الآن ؟

— أى حال يا ماما .. أحوالى كثيرة لأنى أنا شخصيا مجموعة من الناس ..

كانت الأم تريد له أن يتكلم فأجابته وهى تبتسم !

— طيب وكيف أحوال هذه « الهيصبة » ؟

تنهد .. ثم لبس ، وهو يتكلف شخصية الممثل الحسن الأداء كما كان يفعل فى فرقة التمثيل بالمدرسة الثانوية ، وكما كان يفعل عندما يدخل معاقبا على الناظر فيلبس دور المظلومين ثم دور المرضى المحطمين إذا ما دعى الأمر ، وهو الذى كسب الرهان مرة من خمسة تلاميذ حين استطاع أن يلبس دور المتسول وهو فى ملابس المدرسة ونال عدة نفحات فى ربع ساعة من زوار السيد البدوى الريفين وزملائه الخمسة كامنون عند إحدى النواصى ومعهم كتبهم وكتبه يهللون ويضحكون بعد كل نفحة ..

وعندما سألت أمه عن أحواله بدأ يقص عليها موقفه من الطلبة الذين يسكن

معهم ..



(البيت الصامت)

— أسوأ شيء يا ماما أن يكون السكن المشترك محتويا على ثلاثة .. لأن هذا العدد يا آنسة « درية » (استدركت الأم يا سيدة « درية ») متأسف .. هذا العدد غير قابل للقسمة على اثنين .. فإذا ما اختلفنا كان معنى ذلك أن واحدا منا سيكون عرضة لهجوم الآخرين .. وقد كنت أنا دائما هو الواحد المفرد والحمد لله ..

ضحكت « درية » .. رفعت وجهها إليه لتضحك وتعود إلى الانكباب على المكنة فكأنما لوحث له بزهرة ثم أخفتها ..

ورأى الشاب في هذه الضحكة المختصرة شيئا أقنعه بأن هذه الفتاة تحتاج إلى الضحك .. ولو أنه يعلم أن طريق الإضحاك أوسع الطرق إلى قلوب النساء .. وعادته شخصية الممثل القديم فأخذ يقول :

— خاضمونى عشرة أيام أولاد الحرام فلما ضقت بذلك وأصبح السكن فى نظرى جحيما كنت أدخل فأقول لأحدهم : « السلام عليكم يا ابور الجاز » .. وأقول للآخر : « السلام عليكم يا طشت الغسيل » .. وأقصد واحدا منهم كثير الثروة وآخر كثير الصمت .. لكنهما كانا أولاد الحرام يقابلان كل تحياتى بالإعراض والصمت .. وأخيرا لجأت إلى حيلة .. انتهى يا آنسة « درية » « ضحكت وهى تهز صدرها مع تماوج حركة المدوس على المكنة » فكرت فى مفتاح مشهور استعملته .. فسألت الأم !

— وما هو يا حبيبى ؟

— ليس هناك امرأة لا تعرفه وأنت تعرفينه يا ماما .. مفتاح البطن .. وضحكت المرأتان مع « سمير » .. احمر وجهه الأبيض الأصفر وبدت أسنانه المقرضة : أنه يحمل ملاح أمه .. ليس له ذقن أبيه الفظ .. ذلك الذقن

— ٨٣ —

الذى وضع فى وجهه كأنه علامة « هكذا قالت « درية » فى نفسها « ..
وبعدئذ قال « سمير » ..

— وبما أننى متخصص فى الطبخ وهو إحدى هواياتى قلت فى نفسى ما دام
مفتاح القلب قد ضاع فلماذا لا أستعمل مفتاح البطن .. وصممت على أن
أعد طبخة تطيش صوابهم .. هؤلاء الذين يعانون من نقص التغذية .. ثم سألت :
— هل الآنسة « درية » تعرف اسم الطبخة التى تشبه محطة إذاعة تنوب

الرائحة فيها عن الصوت ؟

فغمغمت فى ربكة أحست هى بلذتها :

— لا ..

— حاولى .. حاولى لكى تصلى ..

— السمك !؟

— لا اه ؟

فقالت بعد تردد وهى تغالب ضحكا شديدا :

— ال .. اليخنى !؟

— ربما .. لكن .. لا أيضا ..

فهمست برقة :

— قل أنت اذن ..

— النساء أكثر دراية من الرجال بهذه الأشياء .

زمت الأم شفتها وأحست أن مجرى الحديث بدأ يتحول لكنها تماسكت

به ، وقالت « درية » للشاب !

— الكلمة لك الآن ..

— آه .. حسن .. إنها الملوخية .. الطبخة التى تفضح .. وعندما شموا رائحتها .. هؤلاء الجوعى ..

دخل الثرثار يقول : ما هذا الضجيج ؟! عطلتنا عن المذاكرة .. ما هذه الجلبة ؟ فلما سألتها عن معنى الجلبة أجابنى بأنها جلبة الرائحة تلك التى شملت تفكيرهم كأنها أصوات .. وضحك وعانقنى .. ثم جاء « طشت الغسيل » ليجلس معنا على المائدة ..

قالت الأم وكأنما لتخفف من هذا على نفس الفتاة .. كأنما خشيت أن تفتن بابنها :

— « سمير » .. أنت مهرج .. حدثنا عن شئ مفيد .. كفى ..
— آه .. يا ماما .. جئت لأستريح يوما فتدخلينى الزنانة .. آه .. أنت لا تعرفين كم أحبك ولو أنك تساعدين أبى أحيانا على سجنى .. « وضحك »
إننى يا ماما مشغول بالبحث الذى سأقدمه .. وقد ترددت على سجن النساء عدة مرات فى القاهرة ..
هتفت المرأتان :

— سجن النساء ؟!
كانت الأم تعنى أن ابنها وزوجها يدخلان السجون وكل منهما يعمل .. وكانت « درية » تستجيب لخيالات شخصية أطلقها الاسم .. ومنها أشياء تلاقى مثلها فى بيتها ..

وتصورت النوافذ الصغيرة التى تراها عبر الميدان وأن وراءها بدل الرجال نساء وخفق قلبها .. لماذا أحست وكأنها تساق إلى أحد هذه العنابر ؟! ثم زايلها الخوف وحل محله عدم اهتمام كأنما أقنعها حادث طويل المدى بأن السجن

— ٨٥ —

شيء غير مخيف .. ثم قالت للفتى :

— لا بد أنك ترى العجب في سجن النساء ..

— أنواع كثيرة .. لكن .. الكلام ليس هذا وقت الكلام « ثم وجه الكلام

إلى أمه « حمام دافء يا ماما وأكلة ونومة .. (ثم نظر إلى « درية ») ويكفى

هذا منك فلن أطلبك بالأحلام ..

همهمت الأم :

— الأحلام على غيرى ..

وابتسم « سمير » واحمر وجه « درية » التي ألقت نظرة على الساعة في

معصمها وأستأذنت ، فودعتها الأم إلى الباب بينما كان « سمير » يفحص كل

شيء فيها وهي تمشى بخطواتها القصيرة المترددة وترد التحية بصوت كأنه

نصف نائم ..

٧

دق جرس الباب على « درية » وهى وحدها عصر يوم من أوائل الشهر ..
 ففتحت بجزر .. رأت رجلا فى هيئة أهل الريف عرفته لأول وهلة .. يمكن
 لأضعف الناس خيالاً أن يصفوه .. وقد وصفه « سلامة » لزوجته وقال لها إنه
 قد يأتى « وهو غير موجود » حاملاً لهم سلة من الزبد .. وعليها أن تأخذ
 السلة وتدفع الثمن ..

كان واقفاً فى خشوع شديد .. على كتفه تلفيعة من القطن وأمامه السلة ..
 واختلطت فى أنف « درية » روائح الزبد والعشب ورائحة ريفية شهيرة
 كتلك التى تفوح من أقفاص الدجاج ، يغطى على كل هذا ويطفو فوقه رائحة
 لزيت عطرى مسح به حسن شيحة شعر رأسه .. وكان يفرك كفيه وهو
 خافض الرأس واقفاً أمام الباب وعينه السليمة تتركز فى فضول .. وعليه جلباب
 من الصوف نصل لونه لقدمه وأعيد صبغه ثم نصل من جديد ..

— السلام عليكم يا سيدتى ..

— آه .. أنت ..

— نعم .. وهل السيد « سلامة » موجود .. معى لكم ..

— أعرف ما معك .. « سلامة » ليس هنا .. لكنه ترك الـ ..

ومدت يدها لتحمل السلة فحال بينها وبين ذلك خوفها على ثوبها ويدها ..
 وانحنى فحمل السلة ودلف إلى الصالة ثم نظر إلى السيدة طويلاً وعانى شيئاً ثم

استأذن في الخروج تاركا السلام لزوجها الغائب لأنه صاحب أفضال
لا تنسى . .

ولما استوفقته لتعطيه الثمن رد عليها بهدوء يوحى بالصدق :

— أخذناه مقدما يا سيدتى ..

كان عليها أن تصدق ولو من باب الاحتياط فلما سألته عن عدد الأبطال
وعن الثمن شعرت أنه غاية في الرخص ..

وعندما وصل إلى باب الشقة عاد سريعا بطريقة من نسي شيئا هاما ..
ورجاها في انكسار أن تسمح له بشيء .

لم تستطع « درية » أن تخمنه بتاتا غير أن حسن شيحة استأذنها كطفل
خائف في أن يتوضأ ويصلى العصر قبل أن يفوت الوقت وحتى يتمكن من
صلاة المغرب في مسجد السيد البدوى ..

و لم تجد السيدة ما يدعو إلى الرضا فتوضأ وأدى صلاته ثم خرج .. تفوح
من أردانه رائحة الزيت العطري الذى يباع عادة عند أبواب الأضرحة ..
غير أن صورته لم تفارق خيالها طوال الليلة .. وجه مظلوم طيب لرجل فقير
يحاول أن يتغلب على الفقر بشئ الأساليب .. وحتى الظروف كذلك أغرقت
في ظلمه .. إذ سلبت له عينيه ..

وشمت رائحة أمان غامض تحيط بشخصيته .. وتمت أن تكون مثله ..
يمشى بلا خوف ويعيش بلا تهديد .. وفي سبيل عيشه يحمل الأثقال ..
وعندما بدأت بكشف الحشيش الأخضر عن وجه السلة رأت شيئا حزنت
من أجله فقد نسي مسبحته أو لعلها سقطت منه ..

أما هو فقد كان يجول جولته الشهرية المألوفة .. فله في مدينة « طنطا »

عشرون مهمة .. فهو سيحصل أجر الخدم الذين جلبهم من القرى لكي يوصلها إلى ذويهم كلها أو بعضها .. وله على ذلك أجر .. سيتعشى في بيت السيد عبد المتعال الموظف بالبلدية الأعزب ابن الأربعين وسيبيت عنده فهو قد قدم له خادمة كبيرة أرملة ، ولولا هذه الخادمة ما أكل ولا نام مرتاحا .

وبعد أن يقضى حسن شيحة حاجاته في بيت السيد عبد المتعال الذي يخرج إلى عمله مبكرا يبدأ حسن شيحة في الحركة إلى السوق .. حيث يشتري ويبيع بأرباح شخصية ولحساب القرويين : أقراطا ذهبية وملابس وأدوية وخططات من العطارين .. ثم يكون غذاؤه في بيت آخر وعشاؤه عند طلبة المعهد الديني هؤلاء الذين حمل لهم الزاد أو النقود ، ثم يبيت عند السيد عبد المتعال في معظم الأوقات لأن من يطلبه من الناس يسأل عنه عادة هناك .. وحسن شيحة فقير تمرد على الفقر وإن لم يبد عليه ذلك .. تمرد على الفقر بالنفاق شأن القرويين .. لكنه لم يستطع التغلب عليه بضربة واحدة من تلك التي يهبها الحظ أو المغامرة .. وتمرد عليه أيضا بالشع الشديد ولم يكن يرى في ذل نفسه لأخذ ما يريد إلا نوعا من محاربة الفقر فهو لم يملك من الدنيا شيئا مشرفا إلا أنه منسوب إلى أسرة غنية في القرية حذفت لقبها عن أبيه لفقره .. وقبل إن والده كان تابعا لهم فحمل لقب المتبوع .. كما حمله عنتر العبسي .. وفي حظائر هذه الأسرة لقي حسن شيحة كل أنواع الذل .. فقد كان أيامها ابن ستة عشر عاما يمثل مزرعة لأمراض الريف .. واختاره أحد أفراد هذه الأسرة ليكون « كلافا » يقدم العلف للمواشي مع عم « خليل » العجوز الأرمـد .. وكان هو وعم « خليل » رفيقين لا يفترقان .. ينمان في « عشة »

ملحقة بالخطائر وقبل النوم عادة يبدأ عم « خليل » في قص ذكريات شبابه ومغامراته مع الوحوش والجننيات وحسن شيحة راقد يحلم بأحلام أخرى .. بأن يتخلص من العوز فهذا هو الوحش وأن يملك مالا وأن يمكنه الزمن من شراء قيراط واحد من أرض هؤلاء الذين أنكروا نسب أبيه إليهم وأطلقوا عليهم لقب « شيحة » مع أنه من عائلة « زين » هذه التي ينام في حظائرهم لخدمة مواشيهم أثناء الليل ..

ولم يشعر « حسن شيحة » بأبوة عم « خليل » له .. مع أنه كان يشوى له البطاطا وهم يستدفنون على النار .. ويلقى عليه كثيرا من قش الأرز إذا أمطرت السماء وهو نائم ويعتبره خليفة شابا سيجلس على عرش الخدمة الخطائر ..

غير أن حادثة ذات شقين نصفها وهمي ونصفها حقيقي كانت سببا في تغيير مجرى حياة « حسن شيحة » ..

إذ بدأت الشكوى ترتفع من شيء ما وسهر عم « خليل » يفكر بروحانية الريفى وفطنته لمعرفة مواطن الخطر فهده تفكيره إلى أمر استبعده .. ثم عاد فمال إلى تصديقه .. ثم استبعده ثم عاد فمال إلى تصديقه .. حتى حدث في إحدى ليالى الصيف بعد هدوء الدنيا والاستغراق في النوم أن استيقظ عم « خليل » على صوت جسم ثقيل يسقط .. فنهض وتحسس مكان « حسن شيحة » فوجده خاليا منه واتجه بالفريزة نحو الخطائر فألقى المصباح الصاروخ مطلقاً فزادت مخاوفه .. لكنه سمع أننا فتحسس طريقه حتى أشعل المصباح وحمله وأخذ يفتش عما هناك فإذا به يرى الشاب ملقى على ظهره في شبه غيبوبة وإحدى المواشى في رجلها الخلفيتين قيد مقطوع وفي عينيها

قلق وذعر ..

وصرخ الكلاف صرخة داخلية لم تخرج من فمه : « عرفنا سر نقص الألبان وموت المواشى .. الله يخرب بيتك يا ابن شيحة يا فاسق » .. ثم جره إلى حيث صب على وجهه ماء ليفيق .. وفي الصباح ضرب من آل زين علقه لا تقل عما يكون في حالات الدفاع عن الشرف الرفيع هرب بعدها الشاب باحثا عن الرزق في مكان آخر .

غير أن كان غير قادر على حمل الفأس غير كفء صحيا لأن يجعلها مصدرا لرزقه .. فقصد إلى أحد المقاولين في قرية مجاورة وكان بطبيعته محتاجا إلى مثل « حسن شيحة » لا للخبرة التي يحملها ولكن لشيء آخر فهو مشهور بطول اللسان حتى إن كثيرا من الذين يخدمونه خدمة شخصية لم يتحملوا شتائه .. وهناك استقر « حسن شيحة » .. يمشى وراءه ويحمل له حاجاته .. وعندما تهيج في الرجل تلك الحمى الشاذة يتعرض هو له ليصب فيه سم لسانه ويقابل كل هذا بابتسام .. وفي الليل ، في خيام العمل ، يخلع له حذاءه ويقدم إليه حماما من الماء الدافئ ثم يقبع عند رأسه حتى ينام .. وشعر المقاول أن هذا الشخص أحسن مثال لما يرجو فأغدق عليه ، وبطبيعة البخل والخوف ادخر « حسن شيحة » كل ما جمع وعاش على بقايا المتبوع حتى ظهرت الطبيعة الإنسانية على سجيته ذات يوم بعد بضعة أعوام .. فلما بدأ المقاول يسبه حمله فيه فما كان من المقاول إلا أن لعن أباه .. فرد « حسن شيحة » أمام الناس ردا لم يكن معقولا « وهل أبوك أحسن من أئى » لم يشتم بل وازن فنال من يد المقاول ويد رجل آخر مثل تلك العلقه التي أخذها دفاعا عن الشرف الرفيع في حظائر آل زين وهو شاب في مقتبل العمر . ثم انفصل عن المقاول لأعمال غير منتظمة

كان آخرها أن أصبح هكذا رجلا قادرا على أن يشتري للناس ويبيع لهم ويخدعهم وينصحهم .. ويساهم في جمع التبرعات للموالد ويتسلل في الليل إلى أماكن الرية ويدخر في صندوق التوفير وقد جاوز الأربعين ولم يتزوج .. ذو شكل قبيح وخصال متضاربة حتى أحبه المتناقضون جميعا ..

* * *

وعندما جاء « حسن شيعة » هذه المرة يحمل لبيت السيد « سلامة » شيئا في سلة ، وقف في الصلاة كما هي العادة ووقعت نظرات « درية » عليه .. لم ترفيه ما قد رآه فيها .. كانت تحس أن مثله لا يخاف .. لماذا ؟ لم تستطع أن تعلق .. تلك الملامح الثابتة والسحنة غير المبالية في غير استسلام ولا تبجح .. أشعرتها أنه في مأمن يقدر صاحبه على منح الأمان .. وكان الأمان أعز ما تتمنى امتلاكه .. حين ينقضي نهار العمل فتسلم للوسادة رأسها مع شخص يشار كها نفس الإحساس والمصير لذلك فإنها أطالت النظر إليه مليا عندما جاء هذه المرة .

أما هو فقد كانت أولى مغامراته في حظائر آل زين فأضحكت منه الشبان والفتيات في القرية ، وأسقطت وزنه كرجل .. وكل فتاة أرادت أن تداعب صديقة لها في الحقول أثناء العمل ابتهلت إلى الله أن تتزوج من « حسن شيعة » فيرتفع صوت الضحكات من بين أشجار القطن أو خطوط البطاطس .. لذلك فقد استحال عالم هذا الرجل إلى اختلاس وخداع في المعاملات ومع أخط النساء .. فلم يشعر مرة أنه في كفة ميزان مع امرأة يد الحب تحرك الميزان فيتحول إلى أرجوحة سحرية ..

وإذا كان حرمان ذلك الشاب ذى الفائلة الغبراء الذى لقي « درية » في

عمارة السيدة « زينات » يولد الضراوة فإن حرمان « حسن شيحة » يولد الفضول والانتظار الطويل خصوصاً بعد ما رأى نظرة عين في غموض الجھول وإغرائه بالنسبة لرجل لم يعرف الامتزاج الآمن قط في عالم النساء ..
كان في السلة المستديرة التي يحملها هذه المرة حمولة من الأرناب .. منها زوجان أو ثلاثة للسيد « سلامة » الذي لقيه منذ أيام في القطار ووعد به بأن يوصلها إليه في البيت ..

كان النور مشعلاً في الصالة وهو راکع يرفع الغطاء عن السلة .. وعندما أخرج المطلوب وقدمه « لدريه » ذهبت به إلى المطبخ لكي تعود ومعها مسيحته التي نسبها فلما عادت رأت ما أذهلها .. كائنات مذعورة تجري بخوف على حريتها في النور والظلام بيض وسود .. خرجت من السلة عندما ملأت خياشيمها رائحة خبز أو شيء أخضر آت من المطبخ الواقع على اليسار .. تلك هي الأرناب .. كان هم « حسن شيحة » أن يحول بين الباقي وبين الفرار فركع يحكم الغطاء على السلة ..

وعندما لاحت « درية » من باب المطبخ ووقع بصرها عليه أطرق وهو يتمم أسفاً . غير أنها تركت كفيها يتلاقيان على بطنها في خبطة حائرة وهي تسأل ماذا تعمل .. فبعضها دخل حجرة النوم المفتوحة ليتوارى في الظلام وبعضها توارى تحت المقاعد وبعضها لبد في ركن يحرك شاربته ويحملق في خوف على حريته التي خطفها بوثة ..

وأخذ الشك ربة البيت في أن هذا الذي حدث ربما كان مقصوداً لكنها أزاء هذا المنظر لم تلبث أن نسيت خوالج الشك .. وبسرعة بديهة غطت السلة التي تشغل الرجل بصينية من النحاس ثم أشعلت النور في المسكن كله وأمرته أن

يتقدم لمطاردة الأرانب ..

ووقفت هي تفكر : « ماذا تعنى الحياة فى هذا المسكن !؟ إنها تطارد هكذا .. هذه الأرنبه البيضاء ذات العيون التى كأنها أفعمت كحلا وذات البطن الكبير الذى يدل على أنها حبلى تبدو فى الركن منعكسة صورتها فى مرآة زينتها وقد تتابعت أنفاسها وانتعش شعرها القطنى — واقفة بانتظار قبضتى » حسن شيحة ..

وخيل إليها أن فى هذه الشقة روحا شريرة ضد الحرية والسعادة .. حين ارتفعت فى لحظات المطاردة صفارة من السجن ونظرت فرأت « حسن شيحة » يلهث وقد وضع ذيل جلبابه فى فمه وقد أمسك زوجا من الأرانب واحدة فى كل يد .. ثم اتجه بهما خارجا إلى الصالة ..

رأت « درية » ظهره وساقيه المعوجتين وبهما آثار جراح فخيل إليها أنها فى غابة .. تركت ضحكة حرة فى صفاء رنين الفضة تخرج من فمها .. لم تضحك مثلها منذ أمد .. منذ كانت تحت ستار من الأمان لم يهتك عنها إلا قبيل دخولها هنا .. وكان سر ضحكها أنها تخيلت « حسن شيحة » ثعلبا يطارد الأرانب فى إحدى الغابات .. وتخيلت نفسها طائرا جميلا فى الغابة .. ويمكن كذلك أن يتحول إلى مطاردتها .. حجرة نومها هذه التى لم تر الأمان فيها منذ عرفت جذرانها الزرقاء المطلية بالجير ..

ودخل « حسن شيحة » يلهث .. وألقى نظرة على السرير المفروش بغطاء من الحرير الأزرق وعادت إلى خاطره ذكريات مغامراته الأولى فى الحظائر فتنهّد وأحس بالخسة ثم ضحك كأنه يسخر من شخص لا يعرفه حين وقعت عينه على وجه السيدة الواقفة أمام المرأة تنظر إلى الأرنبه البيضاء فى الركن وقد

عبق جو الحجرة بروائح العطور والمساحيق والإنسان والحيوان .. وبذكرى
ليالى الذل للمرأة الواقفة هنا والرجل الواقف هناك .. وبنظرات الخوف من
عينى الأرنية البيضاء ..

وفجأة هتف « حسن شيحة » وهو مضطرب النفس قائل « درية » :
— ساعدني من فضلك ..

كان هناك نوع من الأرناب الجبلية فى مثل ضراوة القبط .. فى عينيه
نظرات النذير .. وبعضها تحت السرير فى الظلام .. وتحمل « حسن شيحة »
هذا العبء وحده لكنه عندما رفع رأسه رآها راكعة فى النور تحاول إمساك
أرنية فأغمض عينه السليمة ودخل فى دوار .. كان قدها الصغير يتحرك فى
مرونة لم يستطع تصورها قط ولم يكن ثوبها القصير قادرا على أن يدارى
ما فوق ركبتيها فضلا عن سرعة التنفس واحمرار الوجه وضحكة غير مقصودة
أو لثتان لم يحسب حسابه قط ..

وأخيرا أخذ سلته وخرج بعدما دخل مخدعا تفوح منه رائحة حفظتها
ذاكرته .. ولا يمكن أن تنساها .. وسلم عليها وهو عند الباب فشعر أن قلبه
يغوص .. وتعثر وهو نازل عندما اغرورقت عيناه بالدموع .. لم يدرك لماذا
أحس بالتماسة وبشكل واضح .. كأنما كان بشرا منذ لحظة ثم تحول إلى كائن
أدنى .. وأدرك الحالتين وفكر وهو فى ظلام السلم أنه كان مخطئا فماذا كان عليه
لو .. « غير معقول » .

هذه الكائنات التى أطلقها أتاحت له فرصة لم يكن ليراه طول حياته ،
وها هو ذا يذكر منظرها بالتفصيل .. وفى هذا المساء نفسه لا بد أن يشتري
زجاجة من العطر الذى تستعمله ويقربها من أنفه كلما نام ويغمض على عيبرها



ماذا تعنى الحياة فى هذا المسكن ؟! إنها تطارد هكذا !!

عينيه .. هذه التى لم تبد شكاً فى تصرفه ولم تلمه ولم تشتمه .. بل إنه أحس فى نظراتها لنا وفى موقفها شيئاً من الإهمال ..
وهناك فى بيت السيد « عبد المتعال » نام مهيبض القلب يشعر بمسئولية من يعمل عملاً فوق طاقته أو يلبس زياً غير جدير بمهنته .. خزى وخوف ولذة مهزوزة .. ظمآن يتلقف حبات المطر بشفتيه ..

* * *

أما « درية » فباتت ليلها تبكى .. فقد أعادتها إليها نظرات « حسن شبيحة » ذكريات نظرات ذلك الشاب الذى لقيها فى عمارة « زينات » وكأنه خرج لها من الحائط كما تخرج العفاريث .. وأعادتها إليها نظرات الأرنبة البيضاء التى كانت لائذة بأحد أركان غرفة نومها — ذكريات نظرتها هى .. بعينها المغممتين بالكحل .. ليلة التقت بسلامة منذ شهور .. ثم أشعل النور وحملق فى وجهها وهو جالس عند أقدامها ثم أطرق وهو يلقي بكلماته الخفيفة ..

وفى وحدتها هذه قررت بينها وبين نفسها حقائق تحيط بها منها انشغال أمها بأختها المخطوبة ومنها ضعف أبيها من مرض طارئ .. ومنها أن على الغريق أن يعوم وإلا فلا يلوم .. وأن « حسن شبيحة » يراها كالقمر فى السماء وأن « سمير » ذو موقف غامض .. وأما الشئ المهم المتعلق بحياة زوجها معها فهو معركة القوى فيها غير متكافئة لأسباب اجتماعية لكنها مثل تلك التى دارت على أرض غرفة نومها هذه الليلة ..

* * *

وفى آخر نهار اليوم التالى عاد زوجها ..

لاحظت أنه عندما دخل بدا طويل القامة منكفئا إلى الأمام قليلا كأنما كانت بين كتفيه سنام .. فى عينيه انطفاء لم تتعوده من قبل .. انطفاء من لا يحمل فى رأسه فكرة تطل من عينيه مع تعب من طول التفكير .. وخداه المكوران تدليا بزيادة قليلة إلى أسفل ومشيته متخلعة كأحد جنود الفلول .. هل أحست بالرتاء من أجله ؟! .. شئ من الأسى لمس قلبها ثم امتلأت فضولا .. وطلب الطعام فى إهمال لكنه جلس يأكل مثل وحش .. ولم ييادها حديثا ولا نظرة ثم قام فأوى إلى فراشه حيث نام كالقتيل ..

أما هى فقد شغلت نفسها بدق رف من الخشب تحت إطار النافذة الواقعة على الممر لتضع عليه صفا من الأصص ... نعناع وريحان .. وربما قلل فى الصيف .. وفوق هذه الحديقة المعلقة شدت حبلا للغسيل بين مسمارين .. وعليه علقت قميص نوم من الحرير فى ظل جاكete لبيجاما زوجها حتى بدت القطعتان وكأن البيجاما تحتضن القميص .. ذلك للعين التى تنظر من شباك أم « سمير » .. حيث يحتمل أن يكون ابنها هناك ..

وبما أن كل اتجاهات من ضل الطريق متساوية ما دامت لا تؤدى إلى غاية ، فإن « درية » لم تكن تفكر جديا فى أى اتجاه .. إنها لا تجد جوادا تراهن عليه .. وقد حدثتها أخيرا أمها عن السعادة التى تنعم بها بنت إحدى جاراتهم بعد أن أنجبت طفلة جميلة ثم احتفلت بعيد زواجها لثالث مره .. وكلما رأتها الأم ذكرت الخديعة وذكرت التعاسة التى تعيش فيها بنتها « درية » ..

وارتفع من شباك أم « سمير » ذاك العراك المألوف الذى ينشب أحيانا بينها وبين زوجها السجان .. صوته الضارى وصوتها الرفيع ينفصلان ويشبكان فى سلم موسيقى كرية .. لكنها على الرغم من أى شئ متعلقة القلب بهذه (البيت الصامت)

النافذة وتتمنى أن لو كانت مأساتها قد بدأت من خلفها ..
وارتفع من دكان الرفاء كذلك صوت غناء لمهرج أعقبته ضحكات من
الصناع والباعة ذيلتها دعوة منغومة محسورة لسائل على الرصيف المحاذى لبيت
« درية » مصمصة لها وهي ترمى ببعض الفتات لقطة على ظهر الدكان المبنى
في الممر وقلبا يختلج من غمزات الخوف والميل للضحك والبكاء والتطلع نحو
المجهول ..

وسمعت صوت زوجها في الغرفة الأخرى يسعل فقامت إليه .. أشار إليها
بأن تجلس على حافة الفراش ففعلت وخيم صمت شعرت فيه أنه في حاجة
إليها .. حاجة من يريد ويكره ويدارى حقيقة مشاعره عمن يعامله .. كمن
يرفض بلسانه ويده تمتد ..

وكانت « درية » تحمق في الركن التي جثمت فيه أنثى الأرنب من قبل
وخيل إليها أنها تراها بشعرها القطنى وعينيها السوداوين .. وتذكرت قبضة
« حسن شبيحة » حين أمسك بها فارتجف فيها كل شيء .. لكن « درية » في
هذه الوهلة أحست بذراع « سلامة » يطوق عنقها .. ويدعوها في صمت
محزون ..

وفي ظلمة الحجر أحست اضطراب أنفاسه .. وراودها أمل معقول في أن
تصير أما طيبة .. وجاهدت نفسها لتضفى عليه من الحنان ما قد يكفر عن
خطيئة ماضية أو مستقبلية كأم تنزع الضمادة عن جرحها لتضمّد جرح ابنها
العاق .. أدركتها في ظلمة الحجر ميول المستشهدين هكذا .. وكان هو يشعر
بموجة جديدة من الرضا والاسترضاء كان جائزاً أن تعطى ثمرتها لولا الشيء
الجديد الذى جثم على قلبه ..

— ٩٩ —

وأحسست « درية » أن الموقف لم يجد فيه جديد .. لم يزل يعتبرها حتى الآن امرأة خارجة عن أن توصف بوصف ما ولا حتى مأجورة .. وعندئذ طوحت ذراعه لتخلي لنفسها طريق الخروج فأحس بمغزى حركتها فأمسك يدها بقوة لا تفلت وهمس في ضجر :

— أين أنت ذاهبة ؟

— إلى جهنم ..

— مؤكد .. لكن الطريق المؤدى إلى جهنم يحتاج قطعاً إلى وقت .. ابقى معى لتسمعى .. حكاية سأحكيها لك .. أنت ورائى فى كل مكان .. لا أعرف ماذا أريد أن أقول .. أحياناً لا يستطيع القاتل أن يتخلص من المقتول حتى ولو دفنه تحت الأرض السابعة ..

شهقت .. وبدأ اضطراب أصابعها وهى تمسك بلحم كتفه .. لكنه استدرك قائلاً :

— لا تخافى .. لست أقصد ما دار بذهنك .. كل ما أقصده أننا جيبنا فى قبو لا باب له ولا شباك .. نكره بعضنا ونفعل ما نفعله الآن ، ولو رأى واحد منا جثة الآخر تحت قدميه ربما بكى ..

— تبدو الليلة مجنوناً عاقلاً ..

— إننى أدافع عنك ضد نفسى وقد دافعت عنك يا كذابة ضد القاتل صباح اليوم ..

قالت وفكها يرتعد :

— مجنون ..

* * *

كان قد عاد اليوم من مركز الشرطة حيث أدى الشهادة كما رأيتها عينه ..
ففى قطار الركاب الذى يخترق الصحراء مساء إلى القاهرة من شمال الدلتا لم
يكن الركاب كثيرين .. الوقت فى أعقاب العيد والأحباب تزاوروا والطلاب
عادوا .. وصالونات الدرجة الثانية والأولى تكاد تكون خاوية مصابيحها
تضىء الكراسى والممرات .. أما الدرجة الثالثة ذات الكراسى الخشبية فقد
تناثر فيها ركاب قليلون ..

كان « سلامة » يمز فى القطار فوق بصره على شاب وفتاة فى مقبل العمر
يكادان يكونان فى العربة وحدهما .. جلسا جنباً إلى جنب يتها مسان .. وكلما
رأيا أحداً كفا عن الهمس .. كان ممكناً أن يكونا حبيين يجتازان عتبة التجربة
فى حذر وتردد .. وكان جائزاً أن يكونا أخاً وأخته .. هو فى الثانية والعشرين
وهى لم تتجاوز الثامنة عشرة . وجهها تحت ظل الطرحة المسبلة على جبينها
يشى بجمال متوسط أهمه أهذاب عينيها ثم روح ذات رائحة أخاذة على شدة
نخافتها ونصاعة لونها .. تدغدغ الكلمات كأن فى لسانها بقايا لكنة منحت
نطقها سرا وضحكها مخطوفة لا تستتب .. تولد وتموت .. وهو إلى جوارها
يحدثها أحاديث تثير ضحكها أحياناً وأحياناً تجعلها على وشك أن تبكى ..

كان « سلامة » يعلم أن تذاكرهما إلى القاهرة .. غير أنه لأمر ما لذه أن
يراقب هذين الشخصين فقد ذكر حادثة غرام اكتشفها مرة فى قطار الليل أيام
الحرب والمصاييح مفقودة والصالونات شديدة الظلمة ، وعجب ليلتها حين
تبين أنهما زوجان يعملان فى فرقة تمثيل جواله .. لكن .. هذه القروية وهذا
القروى !؟

وانزوى فى أحد أركان العربة وتناول .. وأخذ الوقت يمر والعربة تهتز كأنها

غربال .. ومن خلال أجفانه رأى الشاب يميل على الفتاة ويهمس إليها بكلمة تلفت بعدها فى كل اتجاه وبدا عليها أنها تفحص المكان ثم صدرت منها إشارة تفيد أنه لا داعى لما يقول .. وظلل صمت .. أطرقت معه الفتاة قليلا لكن الإصرار بدا على الشاب وقام فقطع ممر العربى حتى وصل إلى نهايتها ووقف عند القنطرة المفتوحة الواقعة بين العربتين وألقى نظرة على « سلامة » الذى أخذ يشخر نائما ..

وما لبث الفتى أن عاد ومال على الفتاة يغريها من جديد فقامت معه .. أمسك كفها وسار أمامها .. كانت مدفوعة خلفه كأنها فقدت مصيرها .. وكان هو يتبعها ويتلفت حتى إذا ما حاذى سلامة ألقى عليه نظرة .. وكافا قد وصلا إلى نهاية العربى ففتحا الباب المؤدى إلى القنطرة المكشوفة بين العربتين ثم عبر وأقبل الشاب الباب ..

وفجأة قام « سلامة » وحمل من الشق الواقع بين الباب والجدار الخشبي للعربة ليرى ماذا سيفعل الفتى والفتاة .. رأى الشاب يعبر القنطرة إلى العربى الأخرى والفتاة لم تعبر بعد .. والقطار مسرع فى حركة مثل حركة الغربال تدعو للحذر .. وغمغمت ضاحكة :

— خائفة ..

وكان فى لهجتها خوف حقيقى .. فهتف وهو يمد لها يده :

— لا تخافى .. تعالى .. ناولينى يدك ..

وعندما أعطته يدها جذبها نحوه بسرعة ثم أفلت يدها فجأة فتكورت بين العربتين قليلا وتلاشت صرختها مع صوت الحديد ثم سقطت تحت القطار ، ثم صرخ الشاب مستغيثا ..

كان « سلامة » فى حلم فظيع وهو واقف يراقب المنظر وفى حسابه أنه سىرى عاشقين مثل هذين الزوجين اللذين كانا فى المقصورة ..
فما كاد يفيق ويثب إلى العربية الثانية كأنه مستجيب لاستغاثة الشاب ودموعه حتى أمسك به « سلامة » وأخذ يصيح :
— أنت قاتل .. تركتها تهوى .. لماذا انتقلت بها إلى العربية الأخرى ؟

* * *

وعندما كف « سلامة » عن الحديث قامت « درية » وأشعلت النور ، شعرت أن فى الحجرة أشباحا لا بد أن تطرد .. وعادت فجلست فى الفراش .. أمسك الزوج بيدها فألفاها باردة ووجهها فى بياض الجير .. وعادت إليها صورة الأرنبة البيضاء والأصابع الخشنة وهى تطبق عليها فأحست أنها عاجزة عن التنفس .. ونظرت إليه فإذا الجلد يلون صفحة وجهه غير أنها همست :
قائلة :

— « سلامة » ..

...

ونظر إليها حتى كادت ترى فى عينيه نظرات من حكى عنه ..
تلجلجت قائلة :

— لماذا .. تخيفنى .. أنا أشعر كأننى فى غربال ..

ووضعت كفها على صدغها ودارت عينها :

— أنا أشعر أن لهذه الحكاية .. آه .. ماذا تريد منى أن أفعل ؟ ..

« ومن خلال نشيجها » لقد طردت نصفى من البيت وأبقيت معك

نصفى ..

— يعنى !؟

— أنت تفهم ما أريد .. طردت « الإنسانية » واحتفظت بما عدا ذلك ..

— دموع !؟ .. ذكرتنى بالليلة الأولى ..

— كل ما يقابلك فى الخارج تحمله معك ثم تدخل وتصبه على رأسى ..

— أووه ..

— قل لى .. هل كان هذا الشاب زوجا للفتاة ؟

صمت كمن يفكر ثم رد فى همود :

— لا .. أخوها ..

— مخيف .. لكن .. هل هو بسبب ذلك ؟

صرخ كمن يدافع عن شرفه :

— آ آ آه .. أصحاب المصلحة الواحدة يدافع بعضهم عن بعض حتى

ولو كانوا غرباء .. أنت تدافعين عن ..

— عن ماذا !؟ .. عن « روح » .. ومع ذلك أنا مستعدة لأن أدافع « عن

الشيء » الذى تحاسب عليه .. لكن .. لم يكن معنى سلاح القادر لأدافع به

عن نفسى .. لا وقتها .. ولا الآن ..

كان يستمع لها فى تأثر شديد .. ما دافعت عن نفسها قط بهذه الحماسة

حتى فى الليلة التى تخافها كل فتاة .. لكنه كان يجد بابا للقبول الذى حبسا فيه ..

أحرجه العرف والمخاوف .. إن تركها حام حوله التساؤل ، وإن أبقاها شرب

أحدهما العذاب .. بل كلاهما .. وأحس أنها الليلة مربوطة إليه بشعرة بلغت

غاية التوتر .. ثم خامره خوف جديد كان مصدره أنه خوفها .. فمن الجائز أن

يتسابق الخائفان كل إلى إهلاك الآخر .. وكان يتبين أنه يرى فى بيته عدوا له ..

كل يوم جرعة من الكراهية حتى تتكاثف الأحقاد وعندئذ يحدث شئ ليس في حساب الطرفين ..

ثم .. بقدر ما يكون الخوف يكون التخويف .. ولأن منظر الفتاة التي رآها تسقط هز أعصابه فقد كان نهبا للمخاوف ..

ومن أجل ذلك قال بعد سكوت طويل يخوفها بقدر ما هو خائف :
— سمعت منك الليلة كلاما غريبا .. لماذا أنت خائفة منى هكذا ؟! .. لقد عرفت في القطارات أشياء كثيرة حقيقية .. لكنني لست مخيفا للحد الذي تتصورينه .. إحم إحم .. آ .. إننا في القطارات نلتقى باللصوص وقطاع الطريق والهاربين والمهربين والقتلة وجثث في حقائب .. و .. و ..

وعندئذ تركت حجرتها وخرجت مسرعة .. أوت إلى حجرة أخرى وسهرت تبكي .. كانت القطعة التي أطعمتها الفتاة على ظهر الدكان تحت النافذة تموء في استرخاء .. وجعلت « درية » تتذكر منظرها .. سوداء حالكة كقطعة من القטיפه وعيناها هما الشئ الواضح في هيكلها .. وفمها الأحمر إذا ما فتحته .. وتذكرت الوسائد المخملية التي في رجليها وقد كمنت فيها الأظافر .. سلاح .. في كيس من الحرير .. سم وترياق يحمله المخلوق .. وعندئذ سألت نفسها : « وأين أظافري يا ترى » ..

ثم أخذتها غفوة ذات طعم نادر تشبه توقف تيار الحياة بالموت فقد استهلك العذاب ما بقي من قواها ..

واستيقظت على صوت باب يفتح حسبته باب حجرتها لكنه كان باب الشقة .. وسلامة هو الذى يدير المفتاح ويدخل .. والشمس ترسل أولى أشعتها من خلال الشجر في الشارع وبغلة عظيمة الكفل تعانى في جر عربة

محملة بالبرايخ تابعة للبلدية يصرخ خلفها سائق وفي يده كبراج قديم ..
وسمعت « درية » حفيف أوراق في الصالة .. منتشرا متقطعا عرفت أنه من
جريدة تقرأ نزل هو واشتراها وعاد .. وعندئذ وجف قلبها .. فقد فهمت من
عينيه وهو يحكى الدافع إلى الحادث .. وأحست أنها تعرف هذه الفتاة ..
وأخذت صورتها تتجسم لها حتى كادت تلمسها .. رقيقة بخدود مليئة ..
خصرها لا يتحمل شدة حزام .. تلك التى .. « آه .. عجلة قطار » ..

وسمعت نقرة على بابها فخرجت .. كانت كفها الكبيرة ترتجف قليلا وهو
يقدم لها صحيفة الصباح .. وأخذتها منه .. وفي خيالها أنها ربما وجدت صورتها
فيها .. صورتها هى .. لكن عينيها ما لبثتا أن وقعتا على صورة زوجها .. كان
وجهه تجاه وجه الفتاة المقتولة كأن بينه وبينها سرا .. وجهه المكور تبدو عليه
القساوة .. أما الشاب فقد كان جديرا بأن يكون مغنيا على الرغم من أنه فى هذا
الموقف ذو وسامة تتنافى مع ملبسه الريفى وله شارب رقيق .. أما الفتاة التى
شطرها القطار نصفين فقد كان منظر عينيها المغمضتين لا يدل إلا على النوم ..
وعلى الوجه المنزوف براءة كأن ما يخص « الإنسان » من فضائل قد تجمع على
الوجه وحمل باقى الجسم بعده ما لا يخص الإنسان ..

كانت وحدها فى الحجرة ترى أمامها عالما مائجا فى الصحيفة .. وكان على
اضطرابه قبل ذهابه إلى الحمام ييلو فرحا بصورته المنشورة .. وفى هذا العالم
الذى تمثله الصفحة عرفت « درية » كثيرا من أسرار الفتاة التى خمنها المحقق
وإن لم تصل هذه التخمينات بعد إلى مرتبة الحقائق ..

« من المحتمل أن تكون غير عذراء .. إن شقيقتها ينكر الحادثة إنكارا
تاما .. ويدعى أن الحذاء العالى كان سببا فى سقوطها وهى فى طريقها إلى

دورة المياه » ..

« سأله المحقق : وهل من عادتها أن تلبس حذاءً عالياً ؟ » ..

« ولكنه رد بأنهم كانوا سيزورون في القاهرة ناساً محترمين » ..

إن تقدير القاتل لم يحطه التوفيق فلو أن الجثة فرمت أو شطرت بالطول لتغير وجه التحقيق لكن بما أنها شطرت نصفين علوى وسفلى فإن السر سيتضح .. وحول هذا وذلك في الصحيفة صور لناس ولجسر السكة الحديد المرتفع عند قرية الكوم الأحمر ثم صورة أخيها الذى تدل ملامحه على أنه لا يمكن أن يكون قاتلاً ..

ولم يجدا شيئاً يقولانه على طعام الفطور .. فكل كلمة ستعتبر منزلقاً ، وعندما بدأت تصب له الشاي لم يفطن أحدهما أنه أمتلاً وسال الشراب الأحمر على المفرش ، لكن كلا منهما تناول ما يستطيع أن يأكل ولبس هو وخرج .. ثم ما لبثت هي أن فعلت نفس الشيء ..

كان المهم أن تغادر هذه الجدران .. واتجهت نحو شارع السكة الجديدة ومالت لتسلم على الحاج يحيى فى مقلى الحرمين فإذا به مشغول بقراءة الجريدة .. ووقفت أمامه قليلاً ثم أخذت طريقها ومضت .. عن لها أن تذهب إلى بيت أبيها لكنها تراجعته من عند الباب .. وعند مرورها على ضريح البدوى ملأت أنفها روائح العطور فردتها قليلاً إلى أيام خلو البال .. وظلت تمشى وتمشى فإذا بها تجد نفسها أمام عمارة السيدة « زينات » .. فوقفت تفكر .. ما الذى أتى بها إلى هنا ؟! وتمنت فى هذه اللحظة أن لو لقيت ذلك الشاب .. خيل إليها أنها تذكر ملامحه الآن وأن كل منظر مقارب مر بها ثبت ملامحه فى ذاكرتها ..



سحر القمر عليهما ذات ليلة ..

وهست لنفسها : « وماذا سأفعل .. » .. ثم عادت أدراجها نحو شارع
السكة الجديدة وملأ الضجيج المألوف رأسها وهى تمشى غير أنه لم يقهر
أفكارها عن المستقبل المتأهب للهجوم ..
وفي اليوم التالى لم يكن « سلامة » موجودا .. كانت ورديته بالنهار
وسيعود بالليل ..

واشترت صحيفة الصباح وانكبت على الأنباء كأنها تخصها ..
كان يهيمها أن تعرف ما يهم كل امرأة فى هذه القصة .. وكان هناك صورة
لأب له شاربان مصويان .. وأم على وجهها ملامح جمال .. وصورة شمسية
للفتاة تجبر القلوب أن تتحيز معها .. وموجز قضتها أنه عقد قرانها على صياد
غرق فى النيل فى ليلة باردة بعد أن كانت ستزف إليه بعد شهر لكنها لجمالها
وحسن مشاركتها فى أعباء المعيشة تقدم إليها شاب آخر بعد وفاة الأول
بسرعة ، لكن الإشاعات أخذت تترامى إليه بأنها كثيرا ما كانت تلتقى معه
على شاطئ النهر ليلا حين يخرج للصيد وأن أمها عرفت صحة ذلك من رائحة
السماك التى عبقت بها ملابسها ذات ليلة وأنها نهرتها ، لكن الأم فى قرارة
نفسها كانت مطمئنة إلى أنهما زوجان فلم تول الموضوع اهتماما أكثر .. لكن
الإشاعات كانت شاعرية ذات مرة .. إذ انتشر بين الناس أن سحر القمر
غلبهما ذات ليلة وأنها رؤيت وهى تهول عائدة إلى الدار وهو يجرى وراءها
.. ولا يستطيع أن يرفع صوته بالنداء .. لأن طرحتها كانت فى يده .. نسيتهما
المسكينة .. بيد أن هذه الاشاعات لم تجعل الشاب الآخر يتراجع .. فقد كان
كسولا يريد شريكة نشيطة وكان دميما يريد شريكة جميلة .. وكان وحيدا
يحلم بالأنس .. لكنه على الرغم من كل ذلك أحس هو وهى ليلة الزفاف بقلق

كانا تحت سلطانه أشبه بسمكتين يطاردهما شبح الصياد الميت ..
ثم .. صرخ فيها ليلة الرفاف قائلا : لقد صدقت الإشاعات .. يا للمصيبة
.. أما هي فحاولت أن تذكر تفاصيل الماضى فلم تعثر على التفاصيل .. كان
كل شىء فى ذاكرتها ظللا لألعاب لذية فقد لفها مرة فى الشبكة القديمة وحملها
على ظهره ومشى يغنى ويتمم مغمغما بالضحك .. « صدت جنية .. صدت
جنية » .. وفى هذه الليلة شممت أمها من ملابسها رائحة لصياد ..

وعلى الرغم من قوة شخصيتها فإنها لم تستطع أمام زوجها الجديد أن تقول
كلمة ما .. ووجدت نفسها فى شبكة من نوع آخر غير الذى لفها فيه حبيبها
القديم .. ثم ردت إلى بيت أبويها ..

كانت « درية » تحمق فى صورتها دامعة العين .. ومع ذلك كانت تجد أن
هذه الفتاة أسعد حالا منها .. لقد وقف عذابها على الأقل .. وكان هذا العذاب
غطاء للذة سبقت .. وجه آخر للحياة .. فمن استدفاً على اللهب تحمل اللسعة
.. وكانت « درية » لم تكمل بعد قراءة قصة الفتاة .. كانت مشتاقة أن تعرف
ماذا قال الطبيب عن سرها .. قال : « عذراء .. وزوجة معا » ..

إذن فهى مظلومة .. لمت شعث أعصابها وخرجت .. طرقت الباب على
أمها وهى متجهمه .. ثم جلست مختلية بها .. وحدثتها عن حوادث هذه الفتاة
فقالت أمها إن والدها عاش فى نكد هذه الحادثة منذ أمس وأنه منذ رأى صورة
زوجها شاهدا فيها وهو فى توتر لا يتوقف لأنه يعلم أن هذا بالنسبة إليها سينيش
جروحا ..

— أنت لا تعرفين كيف أعيش معه يا ماما ..

— مالك مطرقة .. مهما تصورت فلن تعرفي ، لأنك حملت إلى والدي
« الشرف المعروف » إنني يا ماما أشعر بالتدريج بشيء أخاف منه ..
— لا تخيفيني ..

— لا بد أن أقول ولو أن هذا لا ينفع .. أنا أشعر بالتدريج أن قداسة هذا
الأمر تنحط في عيني يوما بعد يوم بسبب زوجي هذا الذي يشرب من الجدول
وييدى قرفة ، فإما أن يشرب وإما أن يقرف .. وأنا اليوم أتمنى أن أكون مثل
خطيبة الصياد يحملني ليلة في شبكة ثم أموت بعدها فقد جعلني زوجي أشعر
أن الدنيا ممكن ألا تتسع لاثنتين .

— تعالى واتركيه .. آه .. لكن .. اصبري حتى تخرج أختك من البيت
فإن عريسها هنا باستمرار .. و .. وبعدها تخرج .. تعا ..
وضعت كفها على فم أمها حتى لا تكمل حديثها ثم علقت في ذراعها
حقيبة يدها السوداء ومضت ..

نقمتها على كلمات التهوين مثل نقمتها على كلمات الإهانة .. فماذا كان
من الممكن أن تقول لها تلك الأم .. على أنها شعرت بعدها براحة من استسلم
لجدران سجن ، ولفها من جديد شارع السكة الجديدة « بروائح السلع
والذكريات .. وبينما هي في طريقها إلى بيتها لحت أمامها خيال « حسن
شيحة » وخلفه امرأة ريفية سائرا بين الناس مشيته المألوفة السريعة .. كأنه
يعرج برجليه معا .. يميل نحو اليمين ويميل نحو اليسار .. وقد حمل بضائع ملفوفة
في كل يد وحملت هي شيعا على رأسها .. وهمت « درية » أن تناديه .. لم تكن
تدري لماذا تريده ؟! أسمار كل الناس لا تملأ فجوة قلبها العميقة .. دواؤها في
مأساة أعظم أو مسرة لا تدري وصفها ..

وعرج « حسن شيعة » نحو حارة جانبية تتبعه المرأة فتبعته ببصرها .. هذا الذى لا تستطيع الحياة أن تأخذ منه شيئا .. بسمات السخرية تسرى عنه الهموم : « ليتنى مثله » منزلته من عدم المبالاة يستطيع الضعيف أن يفعل معها كل شيء مع الناس ..

وتمنت أن تكون مثله .. أليس ذلك خيرا لها من « حلية » سرقوها منها وحاسبوها عليها ..

وتوارد إلى ذهنها وهى سائرة صورة أبو اليزيد السجنان ذلك الذى ترمى إلى سمعها أنه يبيع الحرية للمساجين لحسابه الخاص .. حرية المنوعات على حد تعبير السجون .. فتعجبت لعالمها : كأن جزءا واحدا من عالمنا يصنع بقية أجزائه الأخرى الحقيقى منها والوهمى .. فلو لم تكن درية فى مشكلتها هذه ما أحست بموقع السجن ولا بد كان الرفاء .. ولو أن عروسا سكنت شقتها بعد ، ما لفت نظرها السجن ولا ما حوله ..

وعندما يقترب شارعها الذى تسكنه من ميدان السجن يصبح قريبا من شريط السكة الحديد ومن الممكن أن تسمع هدير القطارات فى طريقها نحو الشمال أو الجنوب .. ومنذ حادثة حبيبة الصياد دخل القطار فى خيالها بشكل آخر .. وأصبحت تحس بوجوده أكثر من قبل على الرغم من أنه شيء مرتبط بأعمال زوجها ..

لو أن « سلامة » استطاع أن يتصور عالمها كما استطاعت هى أن تتصور عالمه .. مشاكل عويصة تحل بين كل اثنين إذا ما نجح كل منهما فى تصور عالم الآخر الخاص به .

إنها تعرف أن زوجها من النوع الذى يعتبر الرجولة منحة سماوية .. ففى

نظره « ما أعظم أن يكون المخلوق رجلا » وكان يقولها وهو يدفع ب صدره إلى الأمام كمن يحاول أن يلفت الأنظار إلى وسام .. ثم أخذت هذه الفكرة في ذهنه صورة « الحق الإلهي » للملك القرون الغابرة .. فهو لرجولته من حقه أن يأكل وحده ويشرب وحده ويلبس وحده .. وربما يتلذذ وحده .. وهو يحكم مهنته قد مرن على قراءة الوجوه والصراحة التي تبلغ حد الوقاحة .. وفي ليالي الحرب في ظلمة القطارات وهو شاب صغير شهد قصصا ونسج قصصا في خطوط الريف والصحراء .. فضلا عن أزقة طنطا التي تراق على أرضها مياه الغسيل وتفتح أبواب بعضها في الليل بنقرات متفق عليها تتغير كل مدة كأنها كلمات سر ..

سمت « درية » رائحة هذا العالم الخاص به لكنه هو لم يحاول أن يتشمم رائحة عالمها .. طالما هي ساقطة القيد في دفتر الشرف المعروف .. ثم .. ثم فطنت « درية » وهى في الشارع إلى نفس العربية التي رآها « سلامة » عند الشروق أول أمس .. محملة بالبرايخ تجرها بعنف بغلة عظيمة الكفل تابعة للبلدية وكانت في هذه الآونة تجاه بيت أم « سمير » ..

شعرت فجأة أنها تريد أن تراها .. أن تراه .. أن ترى حتى والده والتمثال الرمادى الذى نحتة أحد المساجين ووضع في ركن الصالة يمثل طائرا يرفرف .. كأنه وعد بالحرية لنفس أهلكتها العذاب ..

كان السلم صامتا .. وقع أقدامها عليه ظاهر الصدى .. وشبايكه ذات الزجاج الملون عليها غبار بعض الفصول .. غير أن بهجة « السكن » واطمئنان « الكن » كانت منتشرة على الدرجات والبسطات الواسعة كرائحة حوائج أم ..

وعكست على رجليها وهي واقفة أمام الباب لتدق الجرس دائرة حمراء
بعثرتها الشمس وهي تنعكس على احدى نوافذ السلم فنظرت إليها « درية »
ثم دقت الجرس ..

رن الصوت بالداخل فأحست أن الصوت وحيد .. ثم ما لبثت أن أعادت
الدقة فرن بنفس الطريقة .. زادت وحدانيتها من جديد فحولت بصرها عن
الباب المرتفع الطول وأخذت تتنفس جو المكان .. هاون يدق في أعلى طابق
.. يبعث الجلبة النحاسية وحده أيضا في هذا الجو المستتب .

وعندما بدأت تحول لتنزل سمعت الباب يفتح .. ولدهشتها وجدت
أمامها « سمير » .. وزاد انفراج الباب كأنه يأمرها بالدخول غير أنها لم تتحرك
من مكانها أما هو فكان على وجهه عدم مبالاة من يحدث أحد الباعة الذين
يدقون الأبواب ..

— تفضلى ..

— ماما موجودة ؟

— وبابا .. والحمد لله ..

ابتسمت في عناء وهي تعبر العتبة ومن خلال بسمتها رددت قائلة :

— شكرا .. أنا أريد ماما ..

جلست في الركن الأيمن الذى يلي الباب مباشرة حيث تسود ظلمة رقيقة
كظلمة أركان الأضرحة .. ولم يجلس معها بل قال أيضا بعدم مبالاة :

— دقيقة من فضلك ..

ودخل حيث كان يتناهى إلى سمعها نشيش وابور جاز فى الداخل ..
وكان على الكنية التى جلست عليها صحف صباح اليوم والصور التى

(البيت الصامت)

شغلتها.. وفي الركن ذلك الطائر الذى نحتة المسجون.. يرفرف.. وعلى الكنبه
غطاء من الكريتون فيه رسوم بريشة « سيرىالى » ..

مدت يدها بلا إرادة فتناولت الصحيفة التى تصف الجريمة وأخذت تقرأ
.. ومن حين لحين تلقى نظرة على المنحنى الذى سيأتى منه أحد ما .. ونظرة
أخرى على الطائر ونظرة ثالثة على الباب المفتوح ذى المصاريح العريضة الواقع
أمام مدخل الشقة على خط مستقيم مع شباك مواجهه رأت منه عينها نافذة غرفها
المغلقة .. نعم .. حيث رف الأصوص والحبل المشدود .. وظهر الدكان حيث
تتخذ القطة مرقدها فى الليل ..

شعرت بأن الوقت يستطيل .. شعرت أنه لا أحد فى الشقة حتى سمر هذا
الذى فتح لها تركها وانصرف — لكنها ما لبثت أن اندمجت فى القراءة وسألت
نفسها : هل كون « سمر » فكرة معينة عن هذه الحادثة ؟ وأجابت : هذا
لا شك فيه .. عندئذ تهدت وودت لو أتاحت لها ظروف اليوم أن تتحدث
معه فى هذا الموضوع ..

ثم ما لبثت أن رآته عائدا .. جدد تسريح شعره وارتدى بيجاما غير التى
كانت عليه .. ثم قال وهو يجلس على مقربة منها :
— حالا ..

هزت رأسها مستفهمة عن أمه فأجاب ضاحكا :
— ربما تكون فى الحمام . وأبى نائم وهو يود أن يراك .
ثم أمسك بالصحيفة وقال دون أن يرفع بصره إليها :
— الذين يقضون حياتهم فى القطارات يتاح لهم أن يروا أشياء غريبة . لقد
رأيت صورة السيد « سلامة » (وتأوه) .. هذه الحادثة تعاودنى تفاصيلها

كلما وضعت رأسى على وسادة ..

بلغت ريقها :

— وأنا ..

— طبعاً من أجل زواجك .. لقد اجتاز تجربة كريمة . وقد قالوا : إن الذى يقتل لا يستطيع أن يشعر بفضاعة القتل لكن شاهد العيان هو الذى يشعر بهذه الفضاعة ..

— صحيح .. آه .. لكن يخيل إلى أن الشاب سيرثه القضاء ما دامت الفتاة عذراء لأن شبهة واحدة كما قال زوجى تبرئ ساحة المتهم .. « ثم همست لنفسها » هذا مخيف ..

— أووه .. هناك تفصيل جديد فى جريدة أخرى .. ألم تقرئيه ؟! ..

— أين ؟!

فقدم إليها جريدة المساء السابق ودنا منها حتى دلتها على الموضوع .. وتركها تقرأ وعيناه تنتقل من صورة إلى صورة من صورتها إلى صورة المقتولة .. حتى كادت هى أن تسأل نفسها : « هل يجد بينى وبينها وجه شبه ؟ » ..

كانت الصحيفة تقول « إن الطبيب قد قرر أن فى يد الشاب اليمنى خلع فى مفصل الرسغ وخدوش فى الكف اليمنى للفتاة مما يرجح معه أنها تعلق بيده بكل ثقلها وهى تسقط ثم حدثت محاولة لحملها على ترك يده نتج عنها الخلع فى مفصل الرسغ والخدوش فى كف الفتاة ..

وتنهدت « درية » وهى تضع الصحيفة جانبا ثم نسيت نفسها فى مجلسها .. نسيت أن تعاود السؤال عن الأم .. ومن خلال كفها التى وضعتها على فمها .. وهى تنهت قالت لـ « سمير » :

— ١١٦ —

— ما رأيك في هذا كإنسان يدرس المجتمع ؟!
أغمض قليلا كأنه يوارى أسفه ثم وضع رجله على الأخرى وأخذ يهزها ثم
نظر إليها قائلا :

— في نيتي أن أعمل بحثا عن هذا الموضوع ..
ردت بلهفة :

— لتحل المشكلة ؟!

فقال كأنما يردها إلى الصواب :

— البحوث لا تحل المشاكل يا سيدتى .. فهى ليست أوامر تنفذ بقوة
القانون .. لكن نتيجة أى بحث يحل مشكلة تطرح في المجتمع مثل أى دواء
جديد .. يحتاج إلى إعلان ووقت وقد يتحول من استعماله داعية له .. وبمرور
الزمن يأخذ الدواء مكانته التى يكسبها غالبا من محاكاة الناس بعضهم لبعض ..
فأنت تعلمين أننا مهمما ترقينا نعيش في « مجتمع القردة » ..
مالت ضحكها إلى الصفاء فجرت في وجهها نضرة طارئة ثم همست
بصوت لا يكاد يسمع :

— إن زوجي له حق ..

رد مداعبا :

— في كل شيء ما دمت في صفه ..

— أقصد أنه محق في الكلمة التى يرددها دائما ..

يقول الحمد لله الذى خلقنا رجالا ..

عقب « سمير » على ردها بالضحك لكن ما لبث أن أحس بما يمكن أن
يسمى غيرة رجل من رجل ، فقد ألقت هذه الكلمات على نفسه وهما بأنهما

أسعد زوجين .. وكان رد الفعل لهذا الشعور أن قال لها :
 — على كل حال .. يخيّل إلى أننى ما كنت أعيش بإحساس متغير عن
 إحساسى بالوجود اليوم .. لو .. هاهاها .. لو أن أمى ولدتنى « سميرة » ..
 — أى يه ؟ .. كأنك لا ترهب مشاكل الفتيات ؟!
 ولوحت بالصحيفة .. فعض شفته وهز رأسه وهمس :
 — ذلك موضوع جدير بالتفكير .. لكن .. ما لنا لا نفكر فيه نحن
 الرجال ..

« وخفض صوته كأنه يناجى نفسه » المشكلة منا وإلينا .. لو أن زوجة
 الصياد هذه زفت إلى .. آه .. ماذا أريد أن أقول ؟!
 وخبط كفا بكف كأنما يعلن لنفسه توقف أفكاره .. على أنها كانت
 شديدة التعطش إلى رأيه فقالت على استحياء :
 — سمعت لزوجى تعليقا على هذا الأمر .. قال إن أمنا حواء لم تخلق بهذا
 الشئ لأنه لم يكن له ضرورة وقتها .. فهل هذا صحيح ؟!
 بدت الدهشة على وجه الشاب ولم يحجر جوابا ثم ما لبث أن قال :
 — يجوز أن يكون هذا افتراضا ويجوز أن يكون نكتة .. شئ لا يمكن إثباته
 ولا نفيه ، وإذا شئت أن أتكلم معك مثل طبيب يمكن أن أقول لك أشياء
 كثيرة ..

غمرها التلهف .. وعلقت عيناها بشفتيه الشاحبتين التى بدت شقوقهما
 وبالخليجين الواضحين حول ناصيته ونسيت أنها فى مكان غريب .. وأخذ هو
 يقول :

— هناك حوادث من الممكن أن تعتبر من أخطار المهن .. فالذى يصيب

فتاة السرك بسبب الوثبات العنيفة لا يمكن أن تحاسب عليه وهو في رأى مثل الذى يصيب بعض الريفيات من التعرض — بحكم العمل — لخطر يمكن أن يعتبر فى الموضوع الثانى بعد خطر المهنة ..
هزت رأسها مستزيدة فاستطرد :

— قال لنا أحد مدرسينا أن الريفية التى تنام فى خيام العمل مغتربة فى الشتاء فى الخلاء صيفا بعد مشقة اليوم بين العمال يمكن أن يعتبر ما يصيبها من أخطار المهنة .. إذ كيف يمكن التوفيق بين « الحراسة والنوم » على رأى هذا المدرس .. فالمفروض أن تنظر للظروف قبل أن تنظر للحوادث ..
— معقول معقول ..

حملق فيها واستطرد :

— وهو يقول أيضا : وما رأى إذا جندنا كتيبة من الفتيات للدفاع ، ثم كانت ظروف العمل الجسمانى لهن داخلية ضمن أخطار المهنة ؟ ومع ذلك فقد حكى لنا افتراضا آخر وهو لو أن شابا نشر فى إعلانات الزواج يطلب عروسا واشترط أن تكون مالكة لهذا الشئ فماذا يحدث ؟!

مالت على أظافرها قضمًا مثل تلميذ مرتبك حديث السن ، وفاحت رائحة عطر من حقيبة يدها وهى تفتحها لتبحث عن شئ لا تعلمه ، ثم أقفلتها وألقت نظرة على وجهه المشغول وهو يقول :

— الذى يحدث أن كل من يقرأن هذا الإعلان سيترددن ألف مرة فى الاستجابة إليه .. فالفتيات اللاتي يملكن سيسخرن من سخافة مطلبه معتبرات أن هذا طلب شائن لكل عذراء تتقدم معلنة له انطباق الشرط عليها ، بل ربما أثار شكه هو شخصيا .. أما اللاتي لا يملكن فسيكن قسمين ؛ قسم يزور

— ١١٩ —

ويتقدم ، وقسم يخاف ولا يتقدم .. أما موقفه هو فسيكون على كل حال موقف التحفظ من الجميع .. فلم كل هذا ؟!

فهمست :

— عذاب ..

— للطرفين ..

— أين ماما ؟!

— ألا تسمعين أزيز وابور الجاز ؟!

— إن صورة زوجة الصياد هذه حرمتنى النوم منذ .. آه .. يجب أن نغير مجرى الحديث .. « وتلفتت حولها » هذا الطائر يعجبني ..

قال مداعبا :

— وأنا أيضا .. لأنه رمز للمعارك بينى وبين أبى باستمرار ..

— لا ترفع صوتك ..

— إنه لا يسمعى .. لا نائما ولا غير نائم .. كلامى لا يصل إلى أذنه ولا عقله ، وكان سيحطم تمثال هذا الطائر على رأسى ذات ليلة ونحن نتناقش .. ما أقطع أن يعيش اثنان مختلفان تحت سقف واحد .. « وغمغم ضاحكا » أحمد الله على أننا لسنا زوجين .. أما أمى فإنها تخالفه وتجه ..

— وهل هذا ممكن ؟!

— هكذا تسير حياة كثير من الناس .. صلح ينسى الخصام وخصام ينسى الصلح من أجل أطراف أخرى هم الأبناء وتمشى الحيات تعرج .. تاناتاتا .. والسلحفاة تصل ..

ساد صمت .. وانسحبت دائرة النور الحمراء المسكوبة على البسطة أمام

الباب وشعت النافذة بدلها دائرة بنفسجية .. وهبت نسمة نفذت من تحت الباب .. وحركت في الخارج مناديل « درية » على الجبل المشدود .. مندولين لها ومندولين لزوجها رأت عينها وعينه عبث الهواء بها عبر الباب والنافذة .. وشعرت « درية » كأنها تريد أن تنام .. والرسوم الغامضة في غطاء الكنبه مثل عيون كبيرة بلا أهداب مقفلة تماما .. وعطرها يطفو على الموقف .. ولم تدر لماذا غابت عنها أوجاع نفسها .. وكادت تنكر أن وراء هذه النافذة لاقت ليالى من العذاب .. ثم عادت تتنفس بصوت مسموع كأنه سلسلة من تنهدات مكتومة .. ثم قالت :

— أنت تبدو أكبر من سنك اليوم ..

هتف مأخوذا :

— أنا ؟

— نعم .. عندما تكون جادا تبدو كذلك .. عندما تتكلم عن أشياء غير التي تكلمت عنها في المرة السابقة ..

— عندما أشعر بأننى قادر على عمل شيء مفيد تنتفخ شخصيتى ككل إنسان حتى أبدو كبير السن .. وإذا حدث العكس لهوت مثل الأطفال ..

— معقول .. لكن .. آ .. أين ماما ؟!

— ألا تسمعين صوت وابور الجاز ؟! ولا أزال حتى الآن غريبا عن نفسى

.. وعندما أعامل الناس أكتشف عاما بعد عام أننى أعيش « على حلقات » وفى

الحلقة الجديدة أنكر لنفسى فى الحلقة التى قبلها ..

— هل أنت مشغول بالبحث عن شيء ؟

— أريد أن أعيش فى الريف بعد تخرجى ..



تأرھت .. وٹمايلت شجرة قرية ..

— وتزوج من هناك ؟

جاء هذا سؤالاً مفاجئاً لا داعى له .. وأحسنت هى بذلك لكنه كان تعبيراً غامضاً عن رغبة شخصية .. وحتى هذه الرغبة لم تكن محددة المعالم ..
— لا .. بل تتبعنى مختارة فتاة من المدينة .. تجنبى .

— لكن قل لى : أين ماما ؟

قال بفتور مثل النوم :

— ألا تسمعين هدير الوابور ؟!

— أى واور تعنى ؟!

أرهفت سمعها ، وكان هناك على خط السكة الحديدية الواقع نحو الغرب قطار سريع يهز كل ما حوله .. تنهى صوته إليهما .. كلمها فى شروود وردت فى شروود أكثر .. ونظرا معا إلى الطائر المتطلع إلى الطيران .. يرفرف بأجنحة من حجارة عليها صورة الريش ، وكان هدير القطار يملأ سمعها .. فذكرت غالمها الأول .. الذى يجب أن تعود إليه .. فقامت كأثما ناداها .. ولم يستبقها « سمير » فهبطت السلم بعدما صافحها وكاد لا يترك كفها من كفها ..

وعندما وصلت إلى بيتها ذهبت توالى النافذة المطلة على الممر وفتحتها فإذا بها ترى من خلالها أمه ووالده يدخلان بيتها عائدين من الخارج ..
تأوهت .. وتمايلت شجرة قرية من سطح الدكان بهزة من هواء عابر ..

٨

من خلال الصمت المطبق الذى خيم على جلستهما انبرى صوتها مليئا بالصدق والأسى تقول :

— ليتنى كنت مثلها ..

أرهف زوجها سمعه ووضع كفه على أذنه ومال نحوها عجبا ..

— آه .. ماذا قلت ؟!

— ألم تسمع ؟!

— تتمنين أن تكونى مثلها ؟! .. « وصمت وعاد يتكلم بحماسة أكثر » لك

حق .. لأنك أسوأ منها بكثير فقد ثبت أنها ..

— لك حق .. لقد أثبت الموت براءتها وفرقها عنم لا تحبه بعد أن عاشت

ما كتب لها من العمر مع من تحبه .. « وتأوهت » أنت ترى أن الحياة أعطتها

.. وأن الموت أيضا أعطها ..

تدفق ضحكه كأنه خرج من فتحة صمام :

— أما أنت فلن تأخذى شيئا من الموت ولا الحياة ..

نظرت إليه وخرجت وعادت .. كانا فى غرفة النوم والوقت نهار .. ذهبت

إلى الحجرة الأخرى كأنما لتشم من نافذتها المطللة على نافذة « سمير » رائحة

فكرة تشجع .. رائحة وهم سعيد أو حقيقة ليست حلوة لكنها فقط خالية من المرارة ..

وكان على جبلها فوق الأصص جورب لها يتدلى في استرخاء مطواع .. ولم تلبث سوى دقيقتين ثم عادت إليه كأنما لتنتهى إليه خبرا .. دخلت فألفته واضعاً رجلاً على رجل راقداً على ظهره يهز إحداهما في شبه عصبية .. فقالت :
— من الذى قال لك إننى لن آخذ شيئاً لا من الحياة ولا من الموت ؟!
رد باستهزاء وبعد نظرة فحص طويلة :

— هو ..

— من ؟!

— الثعبان .. الذى دخل .. من بين .. قضبان النافذة .. كما قلت لى يا مدام
« درية » ..

كادت تلهث لاضطراب أنفاسها لكنها تماسكت وقالت بقوة :
— أنا الآن غير مضطرة إلى أن تصدقنى لكنك أنت الآن هو المضطر إلى تصديقى ..

بدأ التوجس على وجهه .. واعتدل في فراشه جالسا وكانت هى واقفة وكلها تنمر .. فى عينها وعلى شفرتها ورعدة أطرافها ما يدل على اتخاذ قرار .. وتقدم نحو حافة الفراش حتى أدلى رجله إلى الأرض وسأل :
— ماذا قلت ؟!

— كنت مضطرة إلى أن تصدقنى من قبل لأرتاح أنا . أما الآن فأنت مضطر إلى أن تصدقنى لترتاح أنت ..
— مناورة ؟!

... —

لكنه رد بلين جديد عليها :

— أنت معذورة .. فقد ألفت حادثة زوجة الصياد ظلا على نفسك ..
لكن يجب أن تعلمي أن الميول الخفيفة ليست من طبعي .. لقد أصبحت أنت
كثيرة المخاوف ..

— أنت لا تعرف ما تريد أن تقول .. ولن تستطيع فهم قصدي ..
سجادة ذات أزهار نارية أطرق نحوها ثم رفع رأسه وبدت في عينيه مخايل
الفهم ثم سأل :

— قولي أنت ..

— حاضر .. سأقول .. هل تذكر يوم عدت من العمل في أسبوعنا الأول
ثم أخبرتنى أن امرأة ولدت في القطار وأن الحل المؤقت لمشكلتنا هو أن نعيش
هكذا .. هكذا ..

— مفهوم .. « ثم صرخ » وبعد ذلك ؟!

— كنت تتمتع عن طريق الألم واللذة لك وحرمانى من الولد .. لكن ..

صرخ :

— لكن ماذا يا فاجرة .. لم يبق إلا أن تدعى أنك أم .

همست كأنها تخاطب من لا تعرفه :

— ليس هذا حقا إنه حقى .. لا تعد ثانيا إلى التكلم فيه ..

— ماذا تريد أن تقول ؟ أريد أن أفهم ..

قالت بنفس إهمالها الأول :

— فرصة عظيمة للمرأة ضد من يكرهها أن تعذبه بمن يحبه .. لا ترعق فهذا

مجرد فرض ..

— لا .. يجب أن تخرجى من هذا البيت ولو أن هذا جاء متأخرا ..

لم يزايلها إهمالها كأنها تساوم على سلعة غير رغبة فيها .. تقلب الموقف وتتكلم بما يشى بعدم الرغبة .. أما هو فكان يظن أن أضراره ويقبض أصابعه كمن يريد أن يفتك ورغم هذا كله جعلها تقول :

— كل الذى كنت أريده من هنا أخذته وانتهى الأمر ..

— ليتنى استطيع أن أفهم ..

— حاولت تفهيمك فلم تقبل فماذا أصنع لك ؟ ثلاثة شهور أو أكثر .. لذة لك وألم لى وهما معا لذة لك .. ومضى الوقت .. فشعرت اليوم أننى أخذت من هذا البيت كل ما أحجاجة .. الخوف والسهر والمهانة علمتنى .. فلم يبق هنا ما أرغب فيه .. أشكرك على أن منحتنى فرصة للكلام .. وحين أخرج من هذا البيت لن أترك فيه إلا الأشياء غير المهمة .

— وما هى ؟!

— أنت .. والعفش ..

ففغر فمه وقال مدهوشا :

— إلى هذا الحد . كل هذا فىك . « وخبط كفا بكف » لماذا إذن كانت الطيبة تبدو عليك ؟! .. هل أنت أم كما تقولين أنا فى الحقيقة كنت أعذب الرجل الذى .. آه .. أنت تفهمين .. لكن .. تعذيبى فيه كان واقعا على رأسك .. وأنت إذا كنت صادقة ستفعلين نفس الشئ .. ستعذبين إنسانا عن طريق إنسان .. آه ..

ووضع كفيه على عينيه يوارى دموعا .. وشمته هى رائحة الأسى ولأول

مرة يبدو مخذولا .. وأسبلت أجفانها وتخلته كيف كان في ليالى التنكيل .. ثم
تصورت المستقبل لكنها على كل حال أحست براحة المغلوب حين يشعر بأن
مأساته دخلت في المحيط العادى للمآسى ..

* * *

من إحدى العمارات التى تبنى الآن حديثا على جزء من الخراب الواقع
خلف مسكن أبيها كانت تتناهى إليها أصوات غناء مفرد تردد المجموعة عقب
كل مقطوعة منه تلك اللازمة القديمة التى أرقتها : « ولدى .. والاداي ..
ولدى » ..

وعاد إليها الماضى بكل تفاصيله حين دخلت الحمام هنا قميصها معلق
تفوح منه رائحتها وصدى الأغنية والحوادث والذكرى تملأ رأسها ..
أما قالت لها حين رأتها داخلة ومعها بعض حاجاتها :
— لماذا جئت ؟

ولم تدر الأم أن « درية » أصبحت فى خوف شديد على نفسها ..
— إنه يا ماما لا تناسبه فتاة مثلى .. تناسبه فتاة تعمل حوله سورا من المشاكل
لتحبسه ثم تفعل ما تريد « واستطردت بمذلة » والأسباب التى أقنعتك بالبقاء
فى هذا البيت فى قوة الأسباب التى أقنعتنى بترك بيته وأكثر ..
هزت الأم رأسها وبدا القلق فى عينيها لكن « درية » سارعت فأجابت عن
كثير من الأسئلة التى تدور برأسها :
— إننى يا ماما .. أم ..

خبطت على صدرها بفرح حزين فقد كان ذلك يعنى أن الماضى طمست
حروفه وأن المشكلة الآن أصبحت مجرد اختلاف بين زوجين ..

— ١٢٨ —

وعادت الأم ففكرت في الموضوع مليا وما لبثت أن هتفت تسأل :

— صحيح أنك أم ؟ أنا غير مصدقة ما سمعت ؟

فتنظرت إلى أمها طويلا من خلال أهدابها وقد ضيقت عينها وفيهما دموع وقالت لها وهي تشرق بريقها :

— وهو أيضا لم يصدق .. مصيبة !؟

هزت الأم رأسها في صمت فاستطردت الفتاة :

— وفي أول حياتي معه .. لم يصدق هو ولم تصدق أنت .. إذن ماذا يا ماما !؟ ..

— لا شيء .. كل هذا من خوفي عليك ..

ومرت بكفها على بطن بنتها ..

فتنهت الفتاة .. كأنما أدركت أن الخوف وحده ليس سبيل النجاة ..
فماذا عملت هذه الأم بخوفها .. أما « درية » فقد أصبحت اليوم تمتم
الخوف ..

* * *

أثاثها مكوم الآن في إحدى الحجرات الخالية في شقة الحاج يحيى فليس من اللائق ولا الفأل الحسن أن يدخل بيت والدها أثاث بنته الأولى على أثاث بنته الثانية .. ولم يعذب الفتاة هذا بقدر ما عذبها وجه السيدة « زينات » يوم جاءت فوجدتها في البيت ، وأنها إليها الفتاة بطريقة نسوية مختصرة توهم بأشياء لا تخصي بأن الحياة مع مثل هذا الرجل مستحيلة . ثم بكى « درية » لأنها شعرت بثقل ما حملت .. ثم انتهزت فرصة دموعها وقالت للسيدة « زينات » كلمات كانت محتاجة لبطانة من الدموع لكي تصل إلى أى

قلب مقفل :

— لو أننى غير شقية إلى هذا الحد .. لتركنت بيته دون أن ..
وفهمت السيدة أنها حامل .. فبدا الغم على وجهها ثم عادت فقالت كأنها
ذكرت شيئا :

— لكن يا بنتى .. على كل حال .. ربما كان هذا سببا فى عودة الأمور إلى
ما كانت عليه بينك وبينه ..
هزت الفتاة رأسها كمن تنفى فكرة .. أو كمن تتألم .. اهتزاز صامت
لا يوحى إلا بالأسى ..

وبعد الشعور بالغربة المألوفة عادت إليها مألوفة من جديد — كأنها لم
تفارق المكان — أصوات الباعة فى مواعيدهم تلك التى تؤلف فى نفسها معالم
شخصية للحى .. كانت تناغيها كل صباح حين تستيقظ وتذكر بشيء من
الفرع أنها لم تزف بعد لزوجها .. ثم تتذكر ما قد حدث لها خلال الأشهر
الماضية وتحسب العمر .. فتعجب كيف تستطيع بضعة أشهر أن تضيف
لأعوامه وذكرياته ومدى بعد أفقه عن يوم ميلادها — كل هذه الأبعاد ..

النافذة على الممر لم تعد تفتح .. والقطعة لم تعد تجد من يطعمها .. لكن
الرفاء حتى الآن يرفى خروقا لا تحصى .. والأصص جف فيها النعناع
والريحان .. والحبل المشدود فوق رف الأصص عليه منديل غسلته يد رجل
غير نقى البياض .. ومشابك غسيل من الخشب تعض الحبل الخالى وقفت عليه
كأنها جراد .. ولم تعد بغلة البلدية تمر من هذا الشارع بعربة البرابخ .. فلعل
العمل قد انتهى هنا وبدأ فى مكان آخر .. غير أن السجن موجود .. أمامه
(البيت الصامت)

الساحة ذات البلاط الحجري وفيه الصفاير والديدانات .. تذهب
الأشخاص وتبقى الأماكن .. سنة الوجود ..

جاء « حسن شيحة » ودق الباب فلم يرد أحد .. لكنه وقف على بسطة
السلم يتلکأ حتى إذا ما تعب من الوقوف جلس على الدرجة الأولى للسلم أمام
الباب .. عندئذ رآه طفل كان نازلا يقفز فلما سأله عمن هنا قال له الطفل :
— تعيش أنت .. عزلت ..

وتوالت نازلا يصفر .. فتبعه الرجل بعينه السليمة ودق قلبه .. وأخرج من
جيبه منديل به رائحة عطر ظنه عطرها .. وبقي في مكانه برهة يعيش
على الصمت والرائحة لكنه أدرك أن خطرا ما قد حل بالسيدة فنزل حيث
ذهب إلى بيت السيد عبد المتعال ، ذلك الرجل الذى يصلى ويفسق ويقول إن
الميزان قد خلق بكفتين واحدة للحسنات وواحدة للسيئات ..

ولم يدر « حسن شيحة » لماذا شعر بالحزن .. كأنما أصيب لأول مرة في
حياته بخيبة أمل شعر معها بالكمد .. كأنما خطف منه شيء جميل كان ملكه
أو على الأقل كان يحلم بامتلاكه ..

لم يلق نظرة ساجية من عين حسناء .. ولا الحركة التى توحى ببدء رفع
الكلفة يوم كان فى شقتها آخر مرة .. وجلس « عبد المتعال » يثرثر وهو فى
معزل عنه يفكر فيما عسى أن يصنع لكى يراها ..

لكنه ما لبث أن سمع الباب يطرق .. ودخلت الخادمة العجوز التى أكلت
وأكلت فأخبرت « حسن شيحة » أن طالبا على الباب يسأل عنه .. ولما
ذكرت اسمه وعرف أنه ابن أحد ملاك الأراضى فى إحدى القرى المجاورة ..
شاب سمين يلهث من الطعام والفوضى .. ويسكن مع أخيه الأصغر فى شقة

فى الحى الجديء .. وكان « حسن شىعة » يحمى إىله المؤونة والنقوء كل أسبوع أو أكثر وىجب له خءما لا يصبرون على أءاه وىهبون ..
وأستأذن « حسن شىعة » من السىء « عبء المتعال » وخرج للطلاب الذى بءء علىه أماراء الربكة .. لكىنه سار معه إى حىء ىمكن أن ىخلصه كما ىخلص ناسا آخرىن من ثمراء ورطاء الحب ..

* * *

أما السىءة أم « سمىر » فقد كانت تحس بالأسى والءهشة نحو ذلك الحادث المفاجئ الذى وقع لهذه الفتاة الطىبة .. وبءأت إشاعات فائرة تنهاى إى سمعها عن أصل قصتها لكن قلبها رفضها .. وفكرت فى أن تذهب لتسأل عنها لكنها أرجأت التفىء لوقت آخر .. أما زوجها فقد بءا لأول مرة فى حىاته ظاهر الحزن على امرأة أصابها مكروه فهو كرمل خلق هكءا كان ىقول لزوجه دائما : « ما ءام النساء أصلا للمصائب فهى إءن أءق بها وأهل لها » وتضربه زوجه بكفها الصغىرة على صءره اللابس قمىصا من الشعر فىءأوه وىضحك ..

لكىنه — مع عجب زوجه — أبءى حزنا على هذه الزوجة وتنبأ بقرب عوءتها إى بىتها من جءىء .. وقهقهه مكملا : « عنءنا مساجىن ىكون على السجن يوم فراقه وىءء أن ىعوءوا إىله .. فما بالك بالبىوت ؟ .. لعن الله الشىطان .. ىغرب هناك وىعمر هناك .. البىوت والسجون .. آه آه .. أنا لا أطىق أن أرى بىتا خالىا من المرأة .. إنه ىصبح زنزانة بلا نور .. هءاك الله ىا بنتى فى بىت زوجك » ..

وأخذت تسمع إىله وهى تبسسم .. لكنها جعلت تفكر مقءما فى المشاعر

التي يكنها لها « سمير » .. ماذا عسى أن يقول عندما يسمع ذلك الخبر ؟
 وأحست بخوف وتوجس .. مجرد شعور أموى نسوى غامض من علاقة
 لم تقم لها دعائم بعد بين شاب وفتاة .. قوامها شعاع مضى من نظرات العيون
 فحسب .. وربما خفقة بأهداب ..
 وتذكرت الأم ذلك المنظر الذى حدث يوم كانت تخطط له البيجاما ذات
 الخطوط الزرقاء ..

ثم سخرت من نفسها : « لماذا أفكر فى هذا كله ؟ » وانصرفت إلى
 مشاغل أهم ..

أما « سلامة » فقد بدأ ينام فى ظلام بارد مرعب مثل الفراغ الذى رأى
 زوجة الصياد تهوى فيه .. وعندما يعود من عمله أو من سهره ويفتح مسكنه
 ويدخل تعاوده همسات الاسترضاء وبكاء الذل .. وفى الحمام — على
 الخصوص — كان يشم رائحة « درية » حتى تخيل أن المكان لا يحتفظ بها فقط
 بل إنه أيضا مصدر لهذه الرائحة .. فإذا ما أراق على بلاطه الماء هبت رائحة
 « درية » كرائحة الحديقة بعد ماء الرى أو قطرات المطر ..

وكثيرا ما حاور نفسه سائلا إياها : « هل يستطيع أن ينكر أن من فى بطنها
 ابنه ؟ وإذا أنكر فماذا سيحتج ؟ .. وأن زوجها الثانى لن يرى إلا محاسنها ..
 وأنه وإن كان شاكيا فى « أمومتها » فإنه عرض الآن للخطر أماكن الحساسية
 فى سيرته كرجل ..

وتذكر أنه جعل من زوجة الصياد شهيدة وهو يتحدث « درية » عنها لكن
 لا ليخفف ثقل البلوى على زوجته بمعنى أن كثيرا من الفتيات يظلمن وقد
 تكون « درية » واحدة منهن — بل جعلها شهيدة لأن كثيرا من الطبيات

يذهبن ضحايا الرذلات فزوجة الصياد صحية لأمثال « درية » ولذلك اختلط الأمر على زوجها الثانى فأسلمها ليد القاتل .

وأخذ يتصور أين سيكون هو فى الذكريات الجديدة لها إذا ما تزوجت وأن ليالى البؤس التى صنعها ستكون مادة طبيعية تنسج هى منها ليالى الأنس للرجل الجديد .. لأنها بحكم ما ذقت ستقنع منه بأى غذاء عاطفى حتى ولو كان قليلا .. والضمادة لجرح القلب غالية وعندما تحصل عليها « درية » ستكون كل كلمة طيبة رصيда سعيدا فى حياتها الجديدة كما ستكون هذه الكلمة نفسها ثقلا عظيم الكآبة تلقى به على كوم ماضيا معه ..

ومن طبيعة الأخطاء والجرائم ألا يفحصها أصحابها جيدا إلا بعد أن تثور خوافيها .. وفى هذه الأرض السبخة تنبت أشواك تأنيب الضخير .. وهكذا عاش « سلامة » .. يضرب فى أرجاء هذه المتاهة ويراهما فى كل مكان ويشم رائحتها .. كان موقنا أنه لا سبيل إلى رجعة ما فات .. فقد رآها تحرق كل سفنها .. وربما كان مبالغا فى بعض إحساساته .. لكن الموقف كان قد تحول بالنسبة للفتاة إلى حالة من احتقار الذات ونداء مستمر لتخليص نفسها من نفسها .. خصوصا بعد ما كانت تسترد جسمها من ذراعيه أو كان هو يلقيها بعيدا عنه ، فأحست بوضوح أن هذا الكيان المادى لم يخلق إلا للتعبير عن أشياء ليس هذا منطوقها .. وأن كل ما حدث لها خلال هذه الأشهر شئ يجب التطهر منه .. ففارقته ..

وشعرت أن « سمير » عندما حدثها عن « أخطار العمل » وأن شيئا من هذا القبيل يمكن أن ينسب لفتاة ريفية نسي أن يقول لها إن كنوز المرأة المادى منها والمعنوى توزع حراسته على سنوات العمر ، فعلمها أن تحرس الكنوز المادية

وهى حديثة السن أو طائشة أو نصف عاقلة وعليها أن تحرس الكنوز المعنوية
وهى كبيرة وعاقلة ..

أحسسته درية وهى تعانى أرقا فى هذه الليلة فى بيت أبيها أن على الفتاة
الطائشة أن تحرس جمالها المتفتح .. وأن على العجوز ذات الرزانة والحكمة
والحافضة لكل ما قاله الأولون — عليها .. ألا تحرس شيئا ..

ثم فكرت فى نظرات الغدر التى كانت تراها فى عينيه بغتة حين تفاجئته
بنظرة ، خصوصا بعد مقتل زوجة الصياد ، .. وتذكرت تلميحا حين اقترح
عليها فيه أن يسافرا مرة إلى الصعيد فوجف قلبها وسألته : « هل المقصود من
هذا زيارة فندق الذكريات يا « سلامة » .. حيث قضينا جزءا من شهر
العسل !؟ » ..

كانت مطرقة خائفة جافة الحلق تصنع من قشور البرتقال بالسكين عرائس
كأنها .. لطفل .. وعندئذ تنحنع .. وارتبك .. وأخذ السكين من يدها فرمى
بها بعيدا وهو يقول : « ماذا تصنعين !؟ » وفهم أن زوجته تريد أن تذكره
بالليالى التى قضياها معا فى الفندق .. وبرائحة الطوب والأسمت والدخان
والشاي المغلى الذى فاح من العمارة الجديدة ..

لكنها كانت تخاف أن يعبر بها من عربه إلى عربه كما حدث لزوجة الصياد ..
ثم بدت لها ضرورة تخليص نفسها من نفسها .. كما أن أسلوب الحياة
لا يمكن أن يسير هكذا .. وعندما نشعر بأن المسكنة ليست ضرورة وأن
الحرية هى الطبيعة الأولى يلوح لنا فجأة طريق غير الذى استتب عليه أقدامنا
.. ولذلك فإن « درية » شاركت فى إشعال نار الحرب ضد نفسها ليقينها أن
خصمها يرتب للحرب ثم ليقينها مرة أخرى أن مفاجأته بخير « الحمل »

ستجعله يترنخ ..

ذكرت موقفه عندما أفضت إليه بذلك فتبسمت في فراشها وشعرت ببرد طارئ أراح صدرها المخزون .. ثم تنهدت وهي تتخيل عدد المخادع في المدينة وعدد الأزواج الذين يأوون إليها .. ثم تصورت أنها تملك بقوة خارقة لم يصل إليها البحث بعد أن في استطاعتها أن تسمع مناغاة السعادة في كل مخدع أو أنات الشقاء فخیل إليها من جديد .. أنه لا سعادة وراء باب مقفل ..

وجاءت إلى ذهنها فكرة غريبة .. أن تتقدم إلى الحاج يحيى فتخطبه لنفسها : « أيها الرجل الطيب .. أنا سأفعل معك شيئاً لم تفعله فتاة .. سأقدم لخطبتك لأسباب منها أنني أحبك وأنتك تحبني وأنتك لم تنجب .. وأنتى قادرة على ذلك ما دام السر في أنك لم تنجب غير معروف حتى اليوم .. سأهبك إخلاصى نظير الأمن الذى يشع من جبينك .. وقبلاتى ثمن عطفك الدائم على صبية وعندما تحتاج للخدمة سأكون ممرضة شابة حفظت لك ذكريات حنان قديم .. وسأحمل عنك هم الأطفال .. وعندما تعجز عن العمل سأقوم به وسأطعم الأسرة .. بلا من ولا أذى .. أثنائى مخزون فى بيتك فأعد النور للحجرة العروس .. إن الطمأنينة التى عشقتها إلى حد الهوس أراها عليك وعلى « حسن شيحة » غير أن طمأنينة عدم المبالاة شئ آخر غير طمأنيتك يا صديقى أبى .. آه أنا .. أريد أن .. أنا ام » ..

ونامت فعلاً .. كأنما على أغنية غنتها لنفسها .. كأنما فى أرجوحة طفل رقدت فيها وهزتها فى وقت واحد ..

وفى الصباح لبست ملابسها وخرجت .. وكان أبوها قد ذهب إلى الدكان بعد أن ملأ البيت بالشكوى من مرض السكر وورم فى قدميه جعل الوقوف

عملا قاسيا .. ولما سألتها أمها إلى أين ؟ قالت لها : لن أغيب .. هل تخافين على الآن يا ماما !

مرت على الحاج « يحيى » فجلست عنده وقتا ما وطلب لها شاي بالنعناع من المقهى المقابل فتذكرت الأصص التي تركتها في شقتها .. على الرف هناك فوق مرقد القطة وتجاه شبك « سمير » : « لا بد أنها جفت » ..

وقال لها الرجل : اخزي الشيطان وعودى لزوجك يا « درية » .. فردت ضاحكة وهي تأتي على الثالة الباقية في الكوب : — إن أخزيت الشيطان حقيقة عشت بعيدة عنه طول عمرى .. سواء أكان العمر يوما أو كان مائة عام ..

حملق فيها وهمهم بما لم تسمعه .. فقد أدار الأمور على كل وجه ممكن .. ثم هز رأسه في يقين قائلا : — أنت أدري .. لكل سره ..

وعند الظهر عادت إلى أمها تنبئها بأنها ستعمل من غد في محل للتطريز وكانت بادية الإنهاك تمسح وجهها بكفها فيضطرب باللون الخمرى على الزغم مما بها .. أما الأم فقد كان عليها أن تدع الأمور تجري في سلام فليس هذا وقت الضجيج ، لأن الأب مريض والبنت الثانية في طريقها إلى الخروج ..

* * *

في يوم الخميس التالى لخروجها من بيت زوجها كان « سمير » في طنطا .. لم يكن يدري بالطبع ما حدث لها .. ولم تشأ أمه أن تسوق الخبر إليه بلا مناسبة ولم ير مناسبا أن يسأل أمه عنها ..

كأنما لذ للأم أن تشهد التساؤل على وجه ابنها وتقيس درجة قلقه كما تقيس



.. أعد النور إلى حجرة العروس ..

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

حرارة الجو .. رآته أول الأمر تلفتاً ثم نظرة من الشباك ثم قلقاً ثم تغير الموقف ..
عندما رأى المشابك واقفة على الحبل الخالي من الغسيل والشيش مقفل
والريحان ملء بالأعواد الجافة أحس أن وراء هذه النافذة شراً ..
وجلس في الركن يفكر هناك حيث تشيع رطوبة وظلمة مثل جو
الأضرحة ويقف طائر رفع جناحيه الحجريين متطلعاً للنهوض .. وحضرته
صورة زوجة الصياد والنقاش الذي جرى حولها بينه وبين « درية »
والضحكات والتنهيد .. وفي المساء لم ير نورا خلف نافذتها .. وكانت الشجرة
الواقعة على مقربة من الممر تترنح مع نسيم الليل وتلقى ظلها على ظهر الدكان
لقربها من مصباح الشارع والحبل يتأرجح كوتر بلا نغم .. وكأن كل شيء
يتحدث عنها في صمت ..

وعندما نكتشف فجأة أهمية أى شيء كنا نعتبره عادياً تجرى الغصة إلى
قلوبنا ، ولذلك .. وعندما شعر « سمير » بذلك .. أخذ يسأل نفسه : لماذا ؟
وسمع قعقة جرس أبيه وساد البيت روح من الاهتمام والحركة حتى ولو لم
يكن هناك حركة . وخلع الأب ملابسه الرسمية وارتدى جلبابه الواسع الأكمال
الذى يصير على استعماله في المدينة .. ثم جلسوا إلى العشاء ..

وكان حديث الأب حول قطعة من الأرض سيشتريها وكان مهتماً بالأمر
وهو يرتب خطوات الشراء كقائد رسم معركة .. والأم تستمع وهي تعلق ..
أما « سمير » فقد كان يعلم من أين تأتى هذه النقود .. ثمن للحظات من الحرية
يبيعها للمسجونين خلصة وحسابه .. ولذلك شعر بالضيق فعمد إلى تحويل
مجرى الحديث بطريقة قد تعجب الأب وقد سرى عن الابن فقال لأبيه : ماذا
تظن يا بابا . بالنسبة للحكم على الشاب قاتل امرأة الصياد ؟

انسحب الأب من أفكاره ثم تأوه .. وصمت قليلا وقال باحتجاج لا يخلو من الرضا والغرور :

— هل تظننى قاضيا أو تظننى محاميا .. أفكارك عجيبة كأفكار أمك يا سمير .. أنا لا أزيد على أنى سبحان .. « ثم ضحك فجأة » لكن .. على قدر عقلى .. أقول إنه سيعلم ..

مصمص الشاب بشفتيه وأبدى اهتماما لا يزيد على الاهتمام العادى ثم قال مستطردا :

— من الغريب أن يكون جارنا هذا .. « وأشار نحو شباك درية » شاهدا فى هذه القضية ..

نظرت الأم بزاوية عينها بذكاء .. أما الأب فقد وثب فجأة — كما رسم « سمير » — إلى قصة الفتاة نفسها تاركا قصة زوجها :

— زوج « درية » .. ظلمه الله .. ما أخبرها يا أم « سمير »؟! ألم تعد إلى بيتها بعد ؟ ..

قالت الأم بلهجة سريعة لم تخل من الأسف :

— وما أظنها ستعود ..

وعرف الشاب من تفاصيل القصة ما عرفه الناس ..

٩

وشيئا فشيئا استطاعت أن تسترد نفسها من ضجيج الماضي وأن تكشف أنها كائن مستقل في حياته نوع من الاختيار .. فإن التعاسة التي تخيم على حياتنا قل أن يصاحبها من التدمير ما يصاحب حياة لا اختيار فيها حتى ولو كانت فردوسا .. فلو أن « درية » اليوم سلكت في حاضرها ما يسبب لها التعاسة فإنها ولا شك ستكون أقل تدمرا ولو أن الماضي كثيرا ما يتغلغل في حاضرها كما ترقد في باطننا أحداث الطفولة ..

كانت مثل المريض الناقه أحس حلاوة النسيم .. وعلى الرغم من عدم التجانس بين طبيعتها وطبيعةعاملات معها في المشغل سوى « زينب » فقد شعرت براحة من يستهلك الوقت وبجهد من يعود مكدودا وبفقدان الوعي عند النوم وبلهفة اليقظة وقت الصباح .. وتجدد تطلعها إلى المستقبل في وجوه ناس تتصورهم ولا تعرف أحدا منهم ثم في وجه تشعر أنه يلح عليها يوما بعد يوم حتى كادت تلقاه قبل أن تلقاه .. وجه « سمير » ..

وعاودتها نظرتها القديمة إليه .. فتمنت أن يكون هو أصل مأساتها .. ثم ذكرت آراءه ووداعه قبل أن تنزل من بيتهم .. وكفه التي نسيت أن تقلت كفه يوم ذاك .. وفي مدينة مثل طنطا يمكن أن يلتقي الناس على سبيل المصادفة

في المحلات ذات الشهرة أو عند أبواب الأضرحة الكبيرة .. حدث ذلك يوم الجمعة الثاني بعد خروج « درية » من بيت زوجها .. كانت تعبر الميدان الكبير الواقع أمام مسجد البدوى والمصلون ينصرفون .. وفجأة شمت رائحة ذكرتها بشخص .. رائحة العطور الزيتية التي تفوح من الباعة الواقفين هناك ذوى العمائم والعذبات .. فتذكرت « حسن شيحة » .. وشعرت في هذه الوهلة أنه طلائع الماضى فوقفت تتلفت كأنما كانت تبحث عن شخص يؤكد لها أنها فعلت صوابا بخروجها من بيت « سلامة » ..

ومن بين ذوى الجلايب القاعدين على درجات السلم الرخامى لباب المسجد حتى يلبسوا أحذيتهم زأت « حسن شيحة » ينهض .. ويمشى مشيته المألوفة مترنحا نحو اليمن ونحو الشمال كأنه يعرج بكلتا رجليه .. وهمت أن تحيد عن طريقه لكنها كانت في مجال نظرة عينه السليمة التي ميزتها في الزحام .. فغرمه باسمها ولم يهتف به .. ثم تناول صرة كانت إلى جواره فيها قماش لفلاحات بدت ألوانه الفاقعة من خلال الشاش الأبيض ، وكانت « درية » متجهة إلى بيت « زينب » زميلتها التي كانت تنتظرها اليوم لتغدى عندها .. فسار جنبها وهو يلهث . يتمرجح والصرة تحت إبطه وفي عينه شيء لا يوصف .. يمكن أن يكون حبا ويمكن أن يكون نداء ويمكن أن يكون لهفة ويمكن أن يكون تطلعا ويمكن أن يكون مخيفا ..

— ذهبتي إلى بيتك يا ست « درية » .. فوجدته .. آه .. لماذا !؟

إن السيد سلامة مخطئ كل الخطأ إذ يتركك ..

قاطعتها كأنما لتنجو من تأثير الحديث :

— وكيف حالك أنت .. إلى أين أنت ذاهب ؟

— ١٤٢ —

فاستطرد وكأنه لم يسمع :

— أنا في غاية الحزن لما حدث .. تصورى .. لقد ذهبت إلى بيتكم أمس
لأسأل عنك ..

— أى بيت ؟!

— بيت والدك .. إننى أعرف طنطا .. لا .. لم أسأل عنك ولا عن أحد
لكن .. كان معى سلة من الزبد للسيد عبد المتعال وهو قريب منكم ..
وطرقت بوابكم وهى معى .. فلما رأيت ناسا غيرك عملت بياعا : هل تريدون
شراء زبدة ؟!

أخذها عجب :

— ورفضوا طبعا ..

— ونزلت .. ولورضوا الرضيت ..

— والسيد عبد المتعال ..

— تدبر ..

وتلجلج يريد أن يقول ما عجز عنه لسانه ونطقت به عينه وأخيرا قال :

— لقد رأيت السيد سلامة فى قطار المناشى منذ ليلتين .

فأطرقت صامته لكن ملاحظها كانت تدل على الاستزادة :

— إنه حزين .. ولما أخبرته بأئنى لم أجد أحدا فى شقته قال إنه .. آه .. ومن

الغريب أنه يفكر فى الزواج من الريف ..

وضحك فى احتجاج وهو سائر يطلع وينقل الصرة من إبط إلى إبط ..

ثم استطرد :

« لما سألت عن الحكمة فى هذا .. لم يعرف الحكمة » وصمت « ويظهر

— ١٤٣ —

أنه لن يعرف الحكمة أبداً .. و .. كان و .. تشاجر مع راكب في القطار وكاد يعتدى عليه بالضرب ..

وهذا من مشيته ومد يده يسلم :

— مع السلامة .. سأذهب من هنا إلى سجن طنطا .. معي أمانة لسجين .. سأوصلها .. ثم .. أسافر إلى القاهرة ..
— وهل تعرف أحدا في السجن ؟

قال في تفاخر :

— سجانين ومساجين .. ومنهم جار كم القديم الباشجاويش أبو اليزيد .. همست وهي تمد يدها لوداعه :

— ذكرتني بزوجه ..

فسارع يقول كأنما قبل أن يتحرك بها قطار :

— سيدة عظيمة .. لكن زوجها « عملي » أكثر منها .. إننى أؤدى لهم خدمات ..

— وأنا أعمل الآن في مشغل الزهور .. تعرفه أيضا ؟! وإن احتجت إلى شيء من الريف .. و .. فسأراك ..

أحست وهي تسلم أنه أودع في كفها شيئا قبل أن ينصرف ، شيئا لا يرى في الكف .. قطعة من النفس يراها الكف نفسه .. ثم شمت كفها بعد أن سارت في نفس اللحظة التي كان هو يشم فيها كفه .. عطر مختلط .. ترك في نفسه حنيناً إليها وترك في نفسها حنيناً إلى نقطة نور رأتها في أيام خلت .. وأصبحت كأنها بعيدة بعدة سنين ..

وكانت على شبه يقين بأن ما حملته لـ « حسن شيخة » سينتج شيئاً ما ..
وأهمه أنها ستري « سمير » ..

وفي هذه الليلة باتت تفكر ..
أشياء قالتها لها « زينب » على الغداء .. هذه الفتاة التي لم تتزوج بعد والتي
ولدت معها في شهر واحد .. وتميل إلى كثير مما تميل إليه وتكره كثيراً مما تكره
.. ولم تذوق طعم الحب حتى الآن وتحس نحو الرجال بأسى غامض كأنه حب
معلق بسبب خيانة مؤكدة توقن أنها ستقع في حياتها .. حتى كادت « درية »
يوم سمعت منها هذا تدعو الله في سرها ألا تلتقى بمثل « سلامة » وألا تكون قد
التقت بشاب في إحدى العمارات .. وفكرت في أشياء غير ذلك .. ماذا في
داخلها؟! .. لقد عذبت بضعة أشهر لأنه رآها ناقصة شيئاً مهما .. وهى على
الرغم من آثار العذاب تحس بإيمانها أنها تنقص شيئاً .. وأن كل الحوادث
الزوجية كابوس متصل قطعته فترات استغاثة لم يسمعها إلا الكابوس ..
وكأن هذه الحوادث قد ألفت في حياتها غطاء مثل غطاء البرعم كمنت فيه
روحها الأصلية حتى يجيء ربيع .. ولو عاما في العمر كله تأخذ النفس فيه
حقها في الأزهار ثم تسقط الزهرة .. المهم أن تنفتح تحت شمس محرقة أو ريعية
فذلك لا يهم ..

أحست وهى تفكر كأنما هى كائن لم يخض تجربة ما .. فترة عاشتها في
خوف دفتته وذلك قبل الزواج وفترة عاشتها في خوف دفنها وذلك بعد الزواج
.. ولا فرق بين حياة الخائف دفناً أو مدفوناً فلا أحد يستطيع أن يطفو على
سطح الظلام ..

وشعرت « درية » فى هذه الليلة أنها تملك ما تملكه كل فتاة .. كله بأجمعه .. وأنها إذا التقت بشخص تحبه فإنها ستقسم له أنها .. آه .. وتأوهت .. وكفت عن التفكير وعضت شفتها فى خوف ... شعرت أن الماضى والحاضر تداخل .. وأصبح الفصل بينهما عسيرا .. وشعرت أنها لن تصنع شيئا جديدا لو أنها اقترفت مع شخص تحبه .. فقد اعتبرت مقترفة دون ذنب ونالت مقدما العقوبة .. وما دام الجزاء المر تعادلا مع ذنب حلو فهى لن تفعل أكثر من أن تذنب بعد الجزاء ..

غير أنها شعرت باشمزاز مفاجئ لهذه الأفكار . فمن هو هذا الذى ستطلب عنده الذنب لتكفر عن الجزاء إن صح هذا التعبير ؟!

وعندئذ تخيل لها « سمير » بشخصية الرجل والطفل وأحاديثه عن حبيبة الصياد يوم كانت عندهم ..

ثم ذكرت شيئا مهما كذلك .. هو أن أمها كل يوم توصيها على من فى بطنها لأنه وثيقة الشرف التى خرجت بها من لىالى السهر والدموع .. وكانت نسمة غامضة ترف على شفتها كلما سمعت من أمها هذا الحديث .. فقد تصورت أمها وكأنها تمنى لها أن تموت مخنوقة لكن بكمية كبيرة من الأزهار .. وأنها هى شخصيا لا تريد ذلك .. تتجه بقلبها نحو أفق مجهول يحرسه ديدبان من الخوف .. هذا هو إحساسها ..

وفى يوم الجمعة التالى قبل الظهر دخل « حسن شيحة » مشغل الزهور .. يحمل ملاءات ومفارش وفساتين من بيوت كثيرة .. بعضها فى الريف وبعضها فى المدينة .. وعجبت « درية » من شدة مبالغته .. ثم أيقنت أنه يجبها فقد كان يقدم هذا بلهفة وعينه تقول : سأبحث عن المزيد .. وجلس

فى المشغل يشرب شايا .. ثم استأذن وعلى ملاحه عجلة من يريد أن يذهب إلى السوق ..

* * *

وخلال هذه الأيام التى لا تكاد تبلى شهرا كان « سمير » يخمن السبب الذى جعل حياة « درية » تنهار وفرض أسبابا ليس بينها السبب الحقيقى .. وفى مساء البارحة وهو يوم الخميس جلس يستمع إلى الحديث الذى يطلقه « حسن شريحة » فى بيتهم فأخذ يصور زوجها كما عرفه .. « على حد قوله » .. فبدلاً من أن يمدح الصديق ذم الخصم .. وما دام افتراقاً فإن الحسن والسيئ قد ألبا أن يلتقيا فى « درية » و « سلامة » .. هذا الذى يعرف كل مكان مريب فى مدينة طنطا والذى يأخذ نقود القرويين السذج — فى المحطات التى ليس بها شباك للتذاكر — ولا يعطيهم قسائم .. وأقسم « حسن شريحة » أنه رآه مرة يرمى إلى زميل له فى إحدى المحطات بعد أن تحرك القطار سلة كبيرة لأحد الركاب دون أن يفطن صاحبها .. فهى سرقة ومزاح وهدية وجبروت ..

وأنه كان فى أيام الحرب يهرب المسروقات من مخازن الإنجليز .. وأن هذا العمل وإن اختلف الناس فيه يعد فى نظره « نظر حسن شريحة » مخلاً بالشرف ..

وما لبث أن سمع قهقهة أبى اليزيد كأنما ينبه لوجوده فكف عن الحديث .. لكن « سمير » أيقن أن مثل « درية » لم تفارقه إلا لأنها رأت الحياة معه شيئاً غير ممكن حقاً ..

— واليلة مساء الجمعة ..

وعند مشغل الزهور توقف دون أن يحس .. وحلق في الداخل واتخذت
سحنته حياة شاب غريب عن المدينة يبحث عن محل معين .. « هذا هو سمير »
وقعت عليه عينا « درية » وهي منكبة على إحدى الماكينات فعادت الذكرى
لكليهما .. ذكرى اللقاء الأول حين رآها جالسة على ماكينة الخياطة في بيتهم
تحيك له ييجاما بخطوط زرقاء ..

وفي عينيها بدا وله غريب .. وله امرأة غمز قلبها فجأة .. ولم تملك حيال
ريبتها لدخوله وقصده إليها إلا أن تتوقف وتنتظر وعلى وجهها « نعم » وبكل
لغات البشر .. وحتى بلغة الصمت ..

وكان تحت إبطه لفافة مسافر .. وكان أزيز الماكينات يتضاءل في اللحظة
التي انفرجت فيها شفتاه عن سؤال وألقاه بثبات وإهمال وبشوق من يريد أن
يعرف مصير شخص معين :

— هناك رجل ريفي اسمه « حسن شيحة » أريد أن أعرف هل مر
عليكم ؟

هزت رأسها بإيجاب وابتسمت .. ثم غمغمت باسمه .. ولم يسمعه أحد
غيرها ثم عادت فأمسكت بما كان بين يديها وأخذت تدير محرك الماكينة من
جديد .. على حين استطرد « سمير » :

— إنه مسافر معي .. واتفق معي على أن ألقاه هنا ..

فرد صاحب المحل بحفاوة :

— نعم نعم ذلك الذى حمل لنا عشر ملاءات وخمسين مفرشا .. آه .. من
الممكن أن تنتظر .. مرحبا ..

وجلس « سمير » عند باب المحل يحكى لصاحب الدكان حكايات غريبة ..

عن زوجات أبيه الثلاث وعن ندرية البنين في أسرهم .. وأن والده يزوج كل سنة بنتا .. وأن كل أشغال العرايس ستكون هنا عن طريقه أو طريق « حسن شيحة » ..

وزاد ترحيب صاحب المشغل ، ذلك الرجل القصير ذو الحذبة والشاربين والنظرة المتسلطة .. وطلب لـ « سمير » زجاجة كازوزة من الحجم الكبير .. ولم يلبث « سمير » أن نظر في ساعة معصمه واعتذر واستأذن ليدرك القطار قائلاً والكلام موجه لمن يهمه :

— إذا جاء « حسن شيحة » بعد انصرافي فممكن أن يلحقننى على المحطة ..

وكان مرتبكاً كأنه محتاج حقيقة إليه وكأنه لا يملك ثمن التذكرة ومصريه مرتبط بوصول هذا الشخص .. ثم انسحب في شبه ذل .. وتبعته عيننا « درية » في تلصص وقلبا يخفق .. لكنها جفلت من أفكارها وشملها سهوم بقية وقت العمل .. وعند انصرافها أحست به يبرز فجأة من مكان في أحد الشوارع على بعد من المشغل وفي يده حقيبة سفر لعلها كانت معه ولم ترها أو لعله أتى بها من البيت ..

وعند هذا المنعرج الذى ظهر منه كان النور غير زاه والشارع غير مزحوم .. وهناك مدرسة وزاوية ومحلات أصحابها يرتاحون يوم الجمعة .. وخطوات وقعها غير مسموع من حذاء من « الكريب » يلبسه « سمير » ..

ولم يسمع إلا شهيقها أول الأمر ثم قالت وهى تتلفت :
— فى الشارع ؟ أتريد أن .. أنا اليوم أكثر تعرضاً للـ .. ثم .. آ ..
— تعالى من هنا إن كنت خائفة ..

الشارع الذى عرجا عليه من أرض الأحكار أصلا .. مبانيه من طبقة واحدة فى الغالب معظمها دكاكين مغلقة الأبواب تفوح منها روائح فى بعض الأماكن تدل على نوع البضاعة التى بداخلها .. لافتاتها فى الظلام إلا ما وقع أمام القناديل المتباعدة فى شكل يوقظ مشاعر مبهمه .. أشبه بمشاعر البلبلة التى نحسها عندما نرى اثنين يتهاامسان على مقربة منا .. وأقفاق مستلقية على العتبات بعضها يلمع ببريق رصاصى وبعضها يلمع ببريق نحاسى .. وغناء بعيد من مقاهى الشارع الرئيسى والسماء فى صفائها الريبى الأليف ..

وكل ما تحسه « درية » أن الشارع أخذ فى الارتفاع وإن الدوار القديم الذى عراها وهى تصعد سلم عمارة عالية للمرة الأولى فى حياتها قد عاودها الليلة .. لكنه على المخاوف التى توازره ليس خاليا من تلذذ الفضول والوسوسة .. وسوسة الصوت الذهبى ذى الرنين المختصر .. تسمعه المرأة من أول حلية لبستها .. وودت لو أن المسرات المخطوفة تحملها « صواعق » .. لو أن قصة جديدة لها تبدأ بصورة تتمناها ثم تنمو وتنتهى بسرعة ولا يكون لها رأى إلا أن تحملها بسرعة حوادث حبا فى فصول القصة كما تحرك « الصابجات » راقصة مخمورة ..

ثم أخذت تقرأ اللافتات تباعا بأطراف شعورها .. كأنها تبحث عن عنوان تسير إليه فى صمت .. ولمدة هذه الدقائق التى قطعها فيها بضعة وعشرين مترا شعرت بلذة أنها مسلووبة الإرادة ربما لأنها كانت تبحث فى حياتها عن أهم الأشياء ولم يكن سوى شخص يعترف لها أنه سبب تعاستها ..

أما هو فقد أحس بوجوب حماية من سبب لها هذا الإحراج حتى أمام نفسها ثم بوجوب حماية نفسه أمامها مخافة أن يكون فى عينها أقل رجولة من

المستوى المطلوب . وبدت له الدنيا التي يحلم بأن يغيرها محصورة في هذا الشارع المقفل الأبواب واللافتات المتابعة التي يقع معظمها في ظلام يحول بين العين والقراءة .. والأحجار المربعة يرن عليها حذاء « درية » .. وشخصان أثنان .. كآدم وحواء .

— ماذا حدث يا « درية » ؟!

كان صوته هامسا مرتبكا لم يخل من التهيج ..
— ألم تعلم ؟.. هاه .. حتى أملك الغالية .. لم تسأل عنى ..
— أنت في بالنا باستمرار .. هل من المستحيل أن تعود حياتكما من جديد ؟!

— هذا الكلام يجرح شعورى .. وإذا كنت تحب أن تقول فليست هذه هى الطريقة ..

وبدأ الشارع يتعرج بشكل غير مألوف فاستطردت بعد صمت :
— من منا يقود خطوات الآخري يا « سمير » .. إن هذا الشارع لا يؤدي فيما أظن إلى محطة السكة الحديد ..

— لم أفكر في المصّب .. المهم أنى عثرت على المنبع « وكنتم ضحكة » كنت أود أن تقوم علاقة ما بينك وبين أمى .

— لا أستطيع أن أرى شباكى القديم .. ولا حتى القطة ولا .. الـ .. آه ..
— لكننى أراه .. وأرى صاحبه .. رأيته يسقى الأوصى التى تركتها ، ومرة أخرى يضع بينها أصيصا من الصبار ..

غمغمت بالضحك :

— مقبرة ؟!



كان النور غير زاه والشارع غير مزحوم ..

— صبار من نوع غريب .. له أوراق مثل السيوف وأزهار في لون البنفسج .. « وسكت ووقف ليأخذ طريقا فرعيا يؤدي إلى مكان قريب من المحطة » :
— كأن القصة كانت شؤما عليه ..

همست بصوت لم يسمعه الليل :
— أى قصة ؟

— حبيبة الصياد ..

و لم يدر كل منهما كيف أمسك بكفى الآخر .. كأنما كان كل منهما يخشى أن يسقط في هوة على الطريق .. وبصوت نصف باك قالت له ..
— هذه القصة .. تخيفني .. تعال نرجع ..

و لم يتحرك أى منهما .. وعادا فتماسكا كمن يعبران قنطرة ضيقة فوق نهر ، وعلى بعد منهما كانت لافتة بيضاء مكتوبة بالأحمر نصفها في الظلام ونصفها في النور على واجهة محل أغلق بابه بحزام من الحديد : « صائغ وجد .. » وغطى الظلام بقية الكلام : « .. وجواهرجى » وكانت تعرف ما هى الكلمة التى غطاها الكلام .. قالت بما يشبه التوسل .

— ارجع وحدك .. وسأرجع وحدى ..
— تضلين الطريق ..

« هه هه هه » بدايات ثلاث ثلاث ضحكات هستيرية متلاحقة لم تكتمل .. كأنما سخرت من فكرته .. « فقد ضلت وهى تنتزه ذات يوم .. » ..

— هه هه هه .. تريد أن تهدينى ؟ .. تعال نرجع .. ليتنى ألبس مثلك حذاء لا يسمع له صوت .. لم تنظر فى الساعة ؟ فاتك القطار ؟ ! لم أر من قبل صبارا

له أزهار في لون البنفسج .. ولا طائرا له أجنحة من الحجارة .. إلا .. آه ..
في بيتنا وبيتكم ..

انتفض قائلا :

— لأول مرة أشعر بالعذاب ...

— لماذا ؟

— لأنى تأجرت ..

— من الضروري أن هناك قطارات بعده ..

— ليس هذا قصدى ..

ردت كمن فهم فجأة :

— آه .. إننى أفزع من حوادث القطارات ، لا تكثر من ذكرها أمامى ..
وتوالت اللافتات .. وهما ماشيان .. حقيبة في يده ووقع أقدام لا يسمع ،
وهى .. لا يكاد همسها يعلو على وقع أقدامها .. لافتات .. « عطور العرايس »
.. « صالون السعادة » .. « زيت الحلبة يدر لبن الأم » .. لافتات ..
ووسوسة .. وقناديل كأعين متعبة أصحابها في الطريق إلى النور ..

وجاءها في هذه اللحظة خاطران يتعلقان بأمرها وحدها . يوم هنا تبدأ ببدء
الأنوثة وهى لا تدري عم تتكلم .. ويوم وقفت إلى جوارها وهى تنهى للقىء
وهى لا تدري أيضا عم تتكلم .

وعاودتها وسوسة الصوت الذهبى ذى الرنين المختصر الذى تسمعه المرأة
من أول حلية لبستها . وكبلتها رغبة من تعرف سرها وحدها — فى أن تحملها
حوادث حب فى فصول قصة كما تحرك « الصابجات » راقصة مخمورة ..

— أنت كثيرة المخاوف .. هل كانوا يتركونك فى الظلام وحدك وأنت

صغيرة ؟!

ضحكت :

— لا .. تركوني في الظلام وأنا كبيرة ..

نفخ ثم قال :

— ألا تريدان العودة إلى بيتك ؟

ردت بهمود :

— لا ..

نظر في ساعة معصمه وقال :

— إذن عندنا وقت في حدود ساعتين ..

بدت الدهشة على وجهها :

— عن أى بيت تتكلم ؟!

فقال في تخاذل :

— آسف .. أخطأ كل منا قصد صاحبه ..

وعاد صُمت متوتر .. بالنسبة إليها كان في غاية الشدوذ .. « لو ينطفئ

النور كله في المدينة » .. « لو أن على عيني كل منا عصاة تحجبه عن

الآخر .. » .. « لو .. » .

وسيطر عليها الميل إلى الخطأ الخبوء .. ميل من لم تنصره الفضائل .. كأنما

كان هذا الميل نوعاً من العمل الإرادى المستور المرغوب يمكن أن يكون رد فعل

لعمل غير إرادى مستور لكن غير مرغوب وقع لها وهى على وشك التفتح .:

وكان على وجهه أمارات أسف ناطقة بالحُب ، فقالت له :

— هل تأملت منى ؟!

— ١٥٥ —

شعرت أن همسها يربت خده ويحمل إليه اعتذارا فقال :
— كنت أود أن أقضى معك ساعة من الوقت لكنك .. آه ..
قالت جادة في شبه مزاح :

— ظننتك تقول الوقت كله .. بعض الوقت !؟ .. ذلك يخيفنى مثل
حوادث القطارات .. لكنى أخاف منك ..

كان يلوى كفها نحو معصمها فالتوت معه في حركة مطواع .. وكان في
هذه الوهلة ينتفع بخيالاته بأن هذا دليل على الاستسلام ..
وتبين برودة أناملها عندما ذكرت كلمة الخوف فقال :
— لك الحق في أن تخافى .. أنا أعرف ظروفك ..

ضحكة صغيرة أكثر امتلاء بالشجاعة .. ترفض الرثاء وتطلب منه شيئا
سواه لم تخل — عن قصد — من سر الأنوثة فجعلته أكثر انتباها وأشد تعلقا :
— أنا خائفة منك أكثر من ظروفى نفسها .

شهق :

— أنا !؟

— نعم .. أنا معترفة بأنك تبدو حيناً في حكمة الرجل وحيناً فى .. آ ..
طفل .. لا تقاطعنى .. إننى أحب الأطفال ولكنى أخاف من الرجال ..
وأحست فجأة بحاجة إلى البكاء .. ذلك الذى نحس بالحاجة إليه حين نعبر
عن نفسنا بصدق قد لا يقدره الناس .. وعادت إليها على الحائط المبيض بالجير
لا فتة من جديد : « زيت الحلبة يدر لبن الأم » فالتقطت بأناملها اليسرى
دمعتين نفضتهما على الطريق أمامهما .. على حين كان هو فى شبه غيبوبة ثم
همس مرددا قولها :

— تحيين .. الأطفال .. وتحافين من الرجال ..
« صمتت .. ثم ضغط كفها كأنه يريد أن يكسرها وقد وقفا عند منعطف » :

— ومن تريدن منى ؟!

واضطرب سيرهما .. هناك تلامس غير مقصود .. يستبقى فيفعل ما لا يفعله التدبير .. وتساءل كل في نفسه : كيف يسيران هكذا وفي المدينة سقوف كثيرة ؟! وهى فى هذه اللحظة فى حالة « انفصام » فلا علم لها بالماضى ولا فكرة عن المستقبل . كيوم بلا اسم بين آلاف الأسابيع من العمر .. لا جمعة ولا سبت ولا ما بينهما .. ولو أنه يقول لها لأطاعت .. ولو أنها تقول له لأطاع .. كفا الآن عن لعبة « شد الحبل » التى تقوم بين الرجل والمرأة وأرخى كل منهما ذراعه ليشده الثانى إليه :

— لماذا لم تردى على ؟! هل تريدن منى الرجل أو الطفل ؟!
وضعت يدها على ساعدها وردت كمن تريد أخذ أقل النصيبين وأكثرهما ضمانا ، وفى صوتها رجفة ..

— الطفل .. أحسن .. لا أريد أن أشعر الحزن .. طفل يحبو حول أمه خير من رجل .. آه .. لقد أثرت هومى ..
جذبها إليه ثم أفلتها .. وهمس :

— ليس فى المدينة مكان يؤوينا .. هل هذا معقول ؟!
لم ترد .. وكانا ينتظران فى كل اتجاه .. وعاد فلو كفها نحو معصمها فألفاها أكثر استسلاما .. وعندئذ لمح على بعد من أحد المداخل الفرعية لافتة مضيئة لأحد الحوانيت .. فترك الحقيقة إلى جانبها على الأرض وجرى :

« انتظرينى » .. ثم عاد بعد دقائق .. كان منها على مرمى بصرها باستمرار شبحاً مندجاً فى الليل .. هو وظلال الحوائط وخفقات القلب والخواف وسرها الشخصى شىء واحد .. وعاد فوجدها قد حملت حقيته تمشى متسللة بها مثل الطيف .. وغمز قلبه منظر سيدة تحمل حقيته الشخصية .. ثم وقف .. ولم يأخذ الحقيية منها . أخرج نظارة الشمس ووضعها على عينيه ثم فوق إحدى عينيه قطعة كبيرة من القطن الذى اشتراه وغطى عينه الأخرى شيئاً ما ، فبدأ كأنه خارج من عملية أو متبهيء لها .. واكسى وجهه عندما أطرق طابعا حزينا ..

أحست « درية » وهى تنظر إلى كل هذا أن قصة مثل التى تمتها على وشك أن تقع .. لكن قشعريرة عرت بدنهما كله وقذف بها « الخوف » إلى ذكريات « الخوف » ... فشعرت بما سلبها إرادة نفسها خصوصاً عندما سار إلى جوارها وهو يقول :

قودينى إلى اللوكاندة الصغيرة التى مررنا بها منذ قليل .. لأنها فى هذا الشارع .. عودى بنا ..

— أنت .. أنت ماذا تريد ؟!

— هأنذا لم أعد أرى شيئاً .. مضرب عن الرؤية حتى ترفعى الغطاء عن

عينى ..

* * *

ومثل زوجة شابة سألت صاحب اللوكاندة عن اسم طبيب عيون يثقون فيه وعلى شفتيها علامات ألم .. تحمل الحقيية ويبدو الاضطراب على وجهها .. وتنقل بصرها من وجه الشاب إلى وجه صاحب اللوكاندة المحزون .. وأخرج

« سمير » منديله وأخذ يتمخط حتى التهبت أرنبة أنفه كمريض بعينه . ثم قادهم صبي صغير إلى إحدى الحجرات .
اللوكاندة مبنية أيضا على أرض الأحكار غرفاتها تطل على سطوح دكاكين في بعض النواحي وأيضا على مساحة واسعة مسورة تستعمل « جراج » مكشوف لسيارات النقل .. وليس فيها نور .. وهناك خفير مسن يكمن في أحد الأركان يغنى وحده أغنية تحمل ذكريات شبابه .. صوته نائم مستكين يناغى الليل ..

وكان في الحجرة ما يمكن أن يسمى « شيزلونج » وسرير كبير عليه ملاءة لم تغير .. والنافذة الوحيدة عند أقدام السرير بينه وبين صوان الملابس .. وعلى الحائط صورة لغزال وصياد وبحيرة ماء شحيحة وسماء مليدة بالغيوم .. لم تلفت هذه الصورة نظر « درية » قدر ما لفت نظرها بقعة على الحائط هناك في أعلاه ناتجة من شئ دورة المياه العليا .. كانت هذه البقعة تمثل في نظرها وجه امرأة على وشك أن تصرخ ..

« سمير » جالس على « الشيزلونج » وهي على كرسي عال من الخيزران على مقربة منه .. ورفع الضمادات وحمل في الحجرة ثم قال له « درية » :
— كأن عيني لم تقع على وجهك من قبل .. ما أحلى نور الدنيا .. هل تسمعين الغناء .. هذا الصوت يشجيني .. الخوف ظاهر عليك .. إحم إحم .. على كل حال على أن أبيت هنا ولك أن تنصرفي .. بحجة .. آ ..
قطعت عليه حديثه قائلة بهمس لا يخلو من خوف وأمر :
— غط عينيك كما وعدتني .. لا أطيق أن ..
ابتسم هامسا :

— غير ممكن ..

— سنكون محلا للشبهة إذا ما طرق علينا الباب أحد . مالى فعلت هذا ؟
وتلفتت حولها كأنها تريد أن تبحث عن مخرج .. غير أنها وجدت أن
الطرف الآخر قد يخطئ في سبيل حرصه على ما يريد فتكون النتيجة رديئة ..
فضلا على أنها مسئولة عما وصلت إليه الآن .. وحملت مرة أخرى إلى النشع
في أعلى الحائط ثم هبطت ببصرها إلى الصياد وعندما وقع نظرها على « سمير »
ألفته قد لبس قناعه وأخذ يهمس :

— أنت مخطئة .. فممكن أن أراك بأطراف أصابعي .. بجوارحي الأخرى
ممكن أن أراك ..

وكانت في هذه اللحظة قد أغمضت عينيها تماما .. وودت لو وضعت
عصاية على بصرها ، كتجربة في مكان مجهول مع شخص مجهول تحرص على
ألا تترك من آثارها إلا بقدر ما تريد هي شخصا .. استخفاء من النفس .. مع
رثاء كثير تحول إلى استصغار ثم ميل لامتهان النفس ..

شهقات مكتومة ودموع وكفه ممدودة إليها تلمس أنامله صفحة خدها ..
وارتفع في الأرض الفضاء غناء الحارس .. لكنه ما لبث أن تلاشى في ضجيج
أصوات لناس قادمين .. أو راحلين .. ثم محرك سيارة يلح عليه شخص
ليصلحه فظفا على المكان أزيز مستمر كأنه من طائرة .. جعل صوت « سمير »
لا يصل إليها فجذبها لتجلس إلى جواره فانجذبت إليه تماما أكثر مما كانت
تصور .. وفي غيوبتها ملأت أنفها روائح لا تخصي : « بنزين وعطر وغبار
وكاوتش وعرق رجل وقطن طبي وتبغ وفتالين ورطوبة » ..

أما الأصوات في أذنها فكلها آتية من الخارج بخلاف الروائح التي كان

بعضها وافدا وبعضها نابعا من الحجرة .. فمع رائحة البنزين سمعت صوت
الحرك ومع رائحة العطر .. لم يكن صوت .. ومع الغبار والكاوتش صوت
شاكوش .. ومع العرق والقطن الطبي والنفثالين والرطوبة لم يكن صوت ..
دودة القز تدخل الشرنقة في صمت يعنى معنى الموت ..

ثم .. ما لبث إحساسها أن رجع في نفس الخط إلى نقطة الاستخفاء من
النفس ومن عينها المهفتين نظرت إليه وهو مطرق .. كان يفرك كفيه كمن
فرغ من مقامرة أفرغ فيها جيوبه وانتهى .. لماذا لم يكن سعيدا .. أقصد : لماذا
كان موقفه خاليا من السعادة .. من إحساس الرجل بذاته ولو بعد فعل
لا ترتضيه ١٩

أما دربة ، فكانت لكى تخرج تجمع في لهوجة .. تجمع لاشيء وإن كانت
تجمع شتات نفسها لا غير .. وواجهها في إحدى مرايا الزينة المستطيلة وجه
فرغت منه .. ولما استبان الموقف شهقت وقالت له وهو لا يزال في وضعه
الأول جالسا مطرقا يفرك كفيه وقد أولاها ظهره :
— ماذا أقول وأنا خارجة ؟

فكر وقد أولته ظهرها متأهبة للخروج .. وطال صمته فهمت أن تعيد
السؤال لكنه قال لها :

— أسألى من في الباب عن أقرب صيدلية ثم .. انتظري .. وبعد أن تعرفى
اسمها لا تخرجى فورا .. اجلسى قليلا في المدخل وغطى وجهك بكفيك كمن
يعانى صداعا .. وأنا منتظرك في الصباح لتخرجى لى ..
وهبطت السلم الذى كادت تفضل طريقه .. وفي مدخل اللوكائندة فعلت
ما أوصى به ..

وخرجت إلى الشارع فقابلها الليل وظلال الجدران والقناديل المتعبة والأبواب الموصدة بأقفالها المتوسدة للعبات وأحزمها الحديدية واللافتات التي قرأتها واحدة واحدة .. « صائغ وجواهر جى » و « زيت الحلبة يدر لبن الأم » غير أنها كانت تمر على هذا كله وكأنها شبح .. كأنها تركت ذاكرتها هناك وعادت .. أو أودعت شخصية مثل شخصيتها هناك في الحجرة .. حيث لا زالت رائحة البنزين تختلط برائحة العطر .. والنفثالين بالقطن الطبي والعرق .. و « سمير » راقد في الظلام يعجب لكل ما حدث ويلقى بسمعه إلى غناء الحارس في « الجراج » المكشوف ..

* * *

وسألتها أمها لماذا هي شاحبة وعليها آثار بكاء فأجابتها بأن أم زميلتها زينب قد ماتت أمس ولم يكن أحد في مشغل الزهور يعلم لكنها ذهبت الليلة إليها .. كذبة صادقة لأن أم زينب ماتت منذ عام وأخذت « درية » تستمع إلى همهمة أمها بين حين وحين : ليتها عاشت حتى زوجها .. الحزن يضر الجنين .. كظمت غيظها وذهبت إلى مخدعها .. لكنها لم تدر — حين استيقظت — لماذا نامت هكذا ؟! ولشد ما حزنت عندما رأبت نور الشمس .. فكثيرا ما نتمنى أن يستغرقنا النوم إلى ما لا نهاية ..

وعلى الرغم من تأخرها عن ميعاد عملها فقد تذكرت ذلك الذي ينتظرها هناك .. لتقود خطاه خارجة من اللوكاندة .. لكنها قررت ألا تفعل .. وفجأة اتخذت قرارا آخر .. هو ألا تخرج من البيت طوال هذا اليوم ..

وعادت فتدثرت بغطائها .. غطت وجهها فأخذها النوم .. في الوقت الذي كان فيه « سمير » في مدخل اللوكاندة يطلب عربة تمر به على أقرب صيدلية .. حيث تنتظره هناك زوجته في طريقهما إلى الطبيب .. كما زعم ..

(البيت الصامت)

١٠

كان يتذكر قصصا عن العدل لقضاة .. وقصصا عن السلوك لواعظين
ومصلحين .. وقصصا عن مرض الأطباء .. عما يسمى في الحياة تناقضات ..
فلم يهتد عندما فكر وهو جالس إلى مكتبه إلى أن الوظيفة ليست « بيئة
طبيعية » تمنح الشخص كل ما يلزم لكي لا يكون متناقضا معها .. لكي يعيش
فيها كالسمك في الماء أو الطير في الهواء ..

ونظر إلى النتيجة المعلقة أمامه على الحائط كانت تعين يوما من أيام مايو وفي
هامش الورقة التي تحمل التاريخ وجد حكمة مكتوبة ..

وعندئذ سحب قلما وورقة وجعل يكتب كمن لا يجد ما يفعله :

« محاربة شهوات الناس تبدأ بعد أن نفرغ من خنق شهواتنا » ..

سكت وسرح ثم أخذ يقرأ العبارة وكأنه هو غير من نقلها من هامش
الورقة .. ومط شفتيه نحوها .. واقترب منها يخلق .. وابتعد عنها يخلق .. ثم
بحث عن سيجارة وأشعلها .. أحس لها بنكهة فريدة .. يكاد التلذذ بها يكون
تخاطبا مع الشهوة .. وعندئذ شعر بالضد .. شعر بأن « المصلح » خلاصة
الخلاصات ..

وحضرته صور لناس سمع عنهم في التاريخ .. وصور لناس عاصرهم فتبسم



لشد ما حزنت عندما رأيت نور الشمس ..

.. ثم وجد أمامه شيئاً كان نسيه . « عدسة » موضوعة على المكتب خلف « المنبه » الذى يندق برتابة .. وأمسك بها .. إنه يشعل بها السجاير من الشمس ويكبر بها الخطوط .. وألقى نفسه يركزها على العبارة المكتوبة .. فكبرت عدة مرات .. وكانت مساحة « العدسة » تسع كلمتين فحسب .. ووقف بها طويلاً أمام كلمتى : « شهوات الناس » خيل إليه أنه يجمع بها خيوط الحوادث بالليل كما يجمع بها خيوط الشمس بالنهار .. كأنه قد ركزها على التاريخ .. فتذكر ضروباً مختلفة من الشهوات تحدث عنها الأساتذة والزملاء والصحف وربما المجاذيب .. تجرى فى دماء البشر كما يجرى المرض ليختار أضعف عضو .. والويل للناس لمن وجدت الشهوة « رأسه » أضعف عضو فيه ..

ضحك خطفاً .. وخيل إليه أنه يسمع أزيز ماكينة تنكب عليها امرأة فى طنطا فى بطنها جنين .. خاف .. وانتقل فجأة خياله إلى مكان مجهول لم يره طول عمره لكنه واضح أمام عينيه .. وضوح النظر رآه فى المنام عدة مرات .. أو من نافذة قطار وهو طفل مسافر مع أبيه إلى الريف ..

مبنى على هيئة زاوية قائمة واقع بين الحقول على مقربة من فرع رشيد بعيد عن القرى مخوف بالأشجار .. تؤنسه بالليل همسات متشورة فى بعض الحجرات وبه كل ما يلزم الأخصائى الاجتماعى .. وفى هذا المبنى هو راقد يحلم .. يحلم غير نائم بتلك المدينة التى أحبها وستلحق به فى الريف لتعيش معه هناك .

وعندئذ تذكر شخصية المصلح فى القرية .. ماذا يحدث لو أن « درية » لحقت به و ..

ولم يسمح لنفسه أن يكمل فكرته .. عادت إليه حوادث طنطا على أنها

موقعة محتمة لم تخض بعد .. وتصور أن تفاصيل ما حدث وصل إلى اسماع أبيه .. عندئذ سيضحك ويضحك وتهتز ذقنه العريضة المصقولة التي كأنها منحوتة وسيتحدث عن الشرف مثل حفيد للشرف عاشره إلى أن لفظ نفسه الأخير ..

وأمسك « سمير » بالعدسة ورمى بها إلى أعلى ثم التقطها .. وعاد فركزها على ما كتب .. توقف على كلمتي : « خنق شهواتنا .. » وعادت العدسة وكأنها تجمع خيوط الحوادث كما تجمع خيوط الشمس .. فتذكر ضروباً مختلفة من الانتصار على النفس تحدث عنها الأساتذة والزملاء والصحف وربما المجاذيب .. ثم ذكر طموحه في أن يغير الدنيا كطموح كل شاب .. فعزت عليه فكرته .. أحس كأنها شيء قابل للكسر قد سقط منه وقد انشرخ .. وعبس .. ومد يده إلى المرأة الصغيرة بجوار المنبه فنظر فيها كأنه يفتش عن القناع الذي استخفى به عن الناس في تلك الليلة .. وعن « درية » نفسها .. وود لو أنه وضعه على عينيه باستمرار ليختفى به عن نفسه ..

لكنه ما لبث أن تعزى .. فألى أن يهتدى إلى الطريق فلا بد له من الخطأ .. وعاد إلى خياله ، أزيز الماكينات في مشغل الزهور .. وشعر أسود مفروق من الوسط وفتاة شاحبة صغيرة القد .. كان وجهها خمرها .. تأكل جسمها من الأفكار .. ولعلها تمشى كل ليلة — وكلما بدا لها — في ذلك الشارع ذى الأبواب الموصدة والأحجار الرمادية ..

وعاد فأمسك بالعدسة وركزها على « المنبه » فرأى عقرب الثواني في أضعاف حجمه .. يجرى محموماً .. وكأنما استطاعت العدسة أن تضخم الحركة كما قد ضخمت الحجم فشعر كأنها تتضاعف وكأن الزمن يفر لا يمر

.. وكأنه عين أخصائيا في قريته .. قرية أبيه .. تلك التي تتحدث عنها أمه
 بفخار ليس هناك مبرر واحد له إلا أنها وطن ..
 وخيل إليه أنه بدأ عمله : يشغله الآن ما قاله أحد أساتذته : « أن يجعل
 الإنسان معترفا بقيمة الإنسان » ..

كتبها « سمير » بالقلم الرصاص .. على الورقة التي نزعها من النتيجة كأنه
 يريد أن يفحص هذه الكلمة وركز عليها العدسة فبدت له كلمة « الإنسان »
 كبيرة وضاعة مثل البقعة الماسية التي تتجمع في هذه العدسة نفسها إذا ما لم بها
 خيوط الشمس .. وأحس في هذه اللحظة أنه ينتسب إلى قطيع غريب يمشى
 في مجموعات شتى ليبحث عن قطيع أرقى .. لكن هذا القطيع الأرقى ليس
 موجودا في أرض غير التي نبحت فيها .. ليس تحت أقدامنا ولا فوق رؤوسنا
 .. بل إن القطيع موجود في نفس القطيع كسيوف مدرجة في أغمارها ..
 والبطل من يخرج هذه السيوف ..

وعاد فتذكر كبوته .. وهرب منها بسرعة : « هل يوجد شباب
 بلا كبوات ؟ » .. وتهد لأنه أحس أنه حطم شيئا .. وعاد يركز العدسة على
 عقرب الثواني الذي يتكلم عن مرور الزمن بأسرع لغة .. حتى قذف به إلى
 قريته من جديد .. وهناك تخيل أنه استطاع أن يبنى له مكانة في قلوب الناس
 حتى بهروا يتحدثون عنه ، لكن « درية » وفدت إليه لتقول له : « تعال
 لتحمل المسؤولية معي إلا إذا كنت يومها هاربا تحت نظارتك » ..

وأحس بضيق فلبس ملابسه ليخرج .. لكنه عند عتبة البيت لقي شخصا
 لم يكن يخطر على باله كان قاصدا إليه .. معه ورقة ملفوفة وكيس كبير من
 الورق .. ومنظره لا تخطئه العين .. إنه « حسن شيحة » .. رآه « سمير » فصدق

قلبه . نبضات فيها الخوف واللهفة والترقب . لكنه على كل حال أحس أن شيئاً هاماً على وشك أن يعرف ..

وفاحت من « حسن شيحة » رائحة العطر الزيتي المألوف وصافح « سمير » وهو يبتسم .. وعندما استقر بهما المكان قدم له اللفافة الأولى فعرف « سمير » أنها كتاب قد نقله إلى طنطا فظنت أمه أنه محتاج إليه وأنه قد نسيه ولم يكن على درجة كبيرة من الأهمية فقد كان على هامش الهامش من دراساته .. أما البكيس ففيه طعام من صنعها .. فاحت منه رائحة زبد القرية .. وقلب الأم ..

وأحس « سمير » بما ترسله في النفوس من هدوء نغمات ناي ساذج يملك القدرة على سحب النفس من المموم .. هكذا فعل به منظر « حسن شيحة » وحكاياته .. خصوصاً عندما أخذ يعلق على منظر فتيات المدينة ويوازن بينهن وبين الريفيات .. « ناس يضعن طلاء الأظافر في أصابع الرجلين وناس تملأ الشقوق فيهن أصابع اليدين .. حكمة .. » .. وفجأة وجد « سمير » نفسه يسأل :

— وكيف حال سلامة يا عم « حسن » ؟

انسربت من عينه السليمة نظرة القواد حين يعرف مغزى سؤال .. وتعثرت بسمة على شفتيه وتهد .. ثم تناول العدسة التي كانت في يد « سمير » وركزها على كفيه هو لحظة كأنه يبحث فيها عن خط الحب .. ثم قال وقد سرح بعينه في فضاء الحجرة :

— قابلته في طنطا عائداً بالليل إلى بيته في وقت متأخر في صحبة فتاة

لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر .. عجفاء مثل معز الجبل ..

سأل « سمير » كمن يجهل :

— ومن تكون ؟ .. يعنى ..

وتخيلت فى عين « حسن شيحة » نظرة القواد مرة أخرى ثم عاد يقول

مقتاسيا سؤال « سمير » :

— وقابلته فى القطار فطلب منى أن أبحث له عن عروسة فلما قلت له لقد

سبق أن طلبت منى فتاة ريفية ضحكك معدلا طلباته بأنه يريد أن يتزوج من

سبق لها الزواج مرتين .. الله أعلم كيف كانت زوجته تعاشره .. إنه لا يعرف

ماذا يريد .. وأنا مثلا عرفت ماذا أريد « وضحك شبه ساخر وقال بمعنى »

عند كل الناس آكل .. عند كل الناس أشرب .. عند كل الناس أرقد ..

وأدرك « سمير » مغزى قوله وكأنه يمزح :

— ألم تذوق طعم الحب يا عم « حسن » ؟

فرك يديه والتقط العدسة من جديد ثم ركزها على أحد كفيه كأنه يفتش

فيها على الخط .. ثم قال فى أسى لا يدرك :

— فى سن السادسة عشرة أحببت فتاة شقراء فى قرىتى كان لها عيون أكبر

من عيون الغزالة .. فى بيوت أسرة غنية اسمها أسرة « زين » والتقيت بها ذات

ليلة لكنهم ضبطونى .. لا تقلق فسأقول لك .. ضبطنى « الكلاف »

وضربونى دفاعا عن شرفهم .. فهربت من القرية فى اليوم التالى ..

فسأله « سمير » دون أن يفهم :

— والفتاة ؟

غمغم « حسن شيحة » :

— ذ .. ذ .. ذبحوها ..

— ذبحوها .. ولم يشعر أحد ؟!

— فى الريف يمكن أن تدارى جرائم الأغنياء .. لا تشغل بالك .. فكثير من علاقات الحب بين الناس يتم بهذه الطريقة حتى ولو كانت بين ملك وملكة ..
— ما لك حزين .. لا بد أن سليلة آل زين كانت عزيزة عليك ..

وضحك « حسن شيحة » فى خفوت :

— ذبحوها .. دعنا من ذلك .. إن السيدة « درية » سألت عنك ..
— وما الداعى ؟

— جاءت سيرة الجيران فسألت عنك .. لعلها تحب أن تسأل عنهم بحكم أنهم ملاصقون لجدران بيت كانت متزوجة فيه .. آه .. لقد تغيرت ..
— إلى أحسن ؟!

هز رأسه نفيا ولم تخل هزته من الأسى .. وسرح الرجلان .. أحدهما يفكر فيما فعل والآخر يفكر فيما يود أن يفعل .. وأرض الحلم كانت واحدة ..
وعندما هم « حسن شيحة » بالانصراف وقع بصره على ورقة النتيجة التى نزعها « سمير » وفيها الحكمة : فتناولها وأخذ يحملق لكى يعرف منها أوقات الصلاة .. ثم ردد الحكمة بصوت مرتفع بطيء عسير القراءة :
— « محاربة .. شهوات الناس .. تبدأ بعد .. أن نفرغ من .. خنق
شهرانا » .. هل تفهم معنى هذا يا سيد « سمير » ؟!

رأسه متجاهلا .

فرد « حسن شيحة » قائلا : ولا أنا .. كنت أريد أن أفهمها منك .. لأنى لم أستطع فهمها وحدى ..

(البيت الصامت)

١١

مضت بضعة شهور ..

ثم تلقى خطابين في يومين متتالين : أحدهما بخط دقيق بلا إمضاء ، فيه جمل كثيرة منها :

« إن التي حملت لك الحقيقة ومشت بجوارك في الظلام تحمل الآن ما يقسم على اثنين .. لأنه ثقل عليها وحدها » .. الخطاب من مشغل الزهور في ورقة رقيقة نضح الخبر على وجهها الآخر .. وقد وضع « سمير » ظهرها أمام المرأة فظهرت الكلمات المقلوبة في الظهر معتدلة كرسالة جديدة .. فكان أمام عينيه رسالتين بخط « درية » وفي ورقة واحدة من وجهين ..
وسأل نفسه وهو يقرأ ما كتبه :

« لماذا لم تستقم حياتها مع زوجها ؟! لا بد أن يختلف إحساس الناس بالناس .. إنها شيء لا ينسى » ..

كانت لحظات تلاشيها في إرادته تمثل أجمل صور الامتلاك .. ولم يكن قد جرب بعد ذلك الملكوت ذا الجو الرائع الذي يجعل الأسرة من أسعد الناس .. ووجد أمامه العدسة التي يشعل بها السجاير ويكبر بها الخطوط .. ركزها على عباراتها كلمة كلمة : « حملت لك الحقيقة » .. « ومشت بجوارك » ..

« تحمل الآن » .

ثم وضع ما في يده وحملني في الحائط .. أمامه النتيجة والنتيجة .. الزمن الصامت والزمن الناطق وحكمة في أسفل الورقة تدعو إلى الصبر .. لكنه وجدها غير مناسبة لحاله ففى كلمات « درية » شيء غريب .. وهو — حتى إذا اعتبر ما فات نزوة — قد لا يستطيع أن يفر من آثارها .. لكنه يحس بأنه يجبها ..

ثم ذكر بعض ما قالته له : « إنها تخاف الطفل الكامن فيه .. » وإن كان يشعر في بعض الليالي أن عذاب الطفل بالحلب أشق ألف مرة من عذاب الكبار حتى ولو نسي الطفل حبه بسرعة — فليس الزمن هو الأساس في العذاب واللذة . العبرة بالجرعة ..

وعاد فأمسك بالعدسة وركزها على الخطاب .. فلاح تحتها كبيرة جدا كلمة « تحمل الآن » .. ولم يدر لماذا انزعج .. سأله نفسه : ماذا يصنع لو أنه أخصائي اجتماعي وجاءت إليه فتاة مثل « درية » وقصت عليه قصة شاب مثل « سمير » وكانت هذه الفتاة « الآن » ..

وعندئذ سرح .. أحس بالشوق والخوف واللهفة .. وحضرته صورة « حسن شيحة » وهو يسأل عن معنى الحكمة التي لم يفهمها .. فلم يجد فرقا بين من لم يفهم لأنه عجز وبين من فهم وتناسى ما فهم .. فالعبرة بالانتفاع لا الامتلاك ...

ثم استطرده خياله .. « ماذا لو كانت .. آه .. إن حملها حقيتي فأل خفيف .. ما مغزى هذا لجعلناه فألا ؟ حقيبة مملوءة تخص رجلا وتحملها امرأة ؟ ! .. ثم .. آه .. لا بد أن أسمع ما تقول ... »

ولم يدر « سمير » ما الدافع؟! .. خوف أو شوق؟! لكنه تلقى رسالة في اليوم التالى من والده تقول له : « لا تحضر هذا الأسبوع إلى طنطا لأننا سننقضى أسبوعا في القرية بسبب سوء صحة خالك .. وقد كتبنا إليك خوف أن تقلق إن حضرت ولم تجدنا .. وعلى كل حال يكفى أننى سأرتاح من متاعب السجن ولو أننا مسافرون في ظروف غير طيبة » ..
وكأنما كان هذا إجماع له بسرعة السفر .. ولاحق له كلمة « الصبر » مرة أخرى في أسفل ورقة النتيجة فوجدها غير متسقة مع ما في قلبه ولا مع حركة عقرب الثواني في المنبه أمامه ..

وفي المساء كان في بيتهم في طنطا .. فتح المسكن بمفتاحه ودخل فألفاه غارقا في السكون وتوجه إلى المطبخ فوجد فيه فاكهة وجبنا .. وعندما امتدت يده قرر ألا يلمس شيئا ثم عاد فوجد في نفسه حجة كافية عند أهله لأن يتحرك كما يريد .. فإن الخطاب لم يصل إلا متأخرا ..

الشمس قد غربت والظلام يخيم في نداوة ريعية ومصابيح الميدان تلمع وراء بعض الأشجار .. ولم يدر لماذا عن له أن يلقي نظرة على مسكن « درية » القديم .. نافذتها مغلقة والظلام راكد على كل شيء .. وليس هناك على رف الزرع شيء أخضر إلا الصبار .. وعادت إليه ذكريات كل لقاء عندما وقع بصرها بعد ذلك على الطائر الرمادى ذى الأجنحة الحجرية التى يريد أن يستقل بها الفضاء .. وتذكر كفها الصغيرة البيضاء وهى تلمسه ذات يوم وكانا وحيدين فى الشقة ولم تشعر هى بوحدتهما ..

لم يكن فى الشقة غبار .. رائحة النظافة لا تزال تفوح منها وخاصة من الحمام الذى رأى فيه منشفة كبيرة منشورة .. واغتسل ، أحس كأنه ولد من

جديد .. نشاط ذهني وحيوية مشت في كيانه .. ثم ما لبث أن اطفأ النور وأقفل باب الشقة ووقف ينظر قبل أن ينزل .. رأى الظلام في داخل المسكن بعين جديدة ، لونا حافلا بالأسرار .. أحس قبل أن يهبط السلم كأن بالداخل شخصين يقولان كلاما يخصه منه نصفه ، كاد يسمع همسات « درية » في الركن المعهود جنب الطائر الرمادي .. كاد يلصق أذنه بالباب وجسمه مقشعر .. « آه .. ماذا تقول !؟ ماذا !؟ » ..

وفي وهلة قصيرة عاودته تفاصيل ما حدث .. فوثب على السلم .. ومشى وهو يحس لأول مرة بعدم حاجته إلى عيون تراه .. إلا عينين اثنتين .. ولذلك ركب أول عربة حنطور واتجه بها إلى مشغل الزهور .. ونزل على بعد منه ثم سار على قدميه حتى لاحت له اللافتة وصاحب المشغل .. واقف بمحذته عند الباب يقبض على خسة ويستل منها عرقا بعد عرق وشارباه يتلاعبان .. صاح عندما وقع بصره على « سمير » في مرح من فوجيء بما يسعده :

— أوه .. لا بد أنك آت لتسأل عن « حسن شيحة » .. كان هنا أمس وسافر يا شيخ .. أهلا وسهلا ..

وانتهبت « درية » على ذكر الاسم .. رفعت بصرها إليه فرأى ظل أهدابها على خديها وبسمة قصيرة مع أزهار منمنمة في المفرش الصغير .. ثم غناء لصبية توقف في الحال .. ثم كلمات غير ذات مدلول بين الشاب والرجل سار بعدها « سمير » إلى حيث وقف ينتظر خروجها .. أما هي فلم يعد شيء أمامها واضحا منذ هذه اللحظة . شعرت كأنها تخط في كتاب حظها آخر صفحاته .. ثم بميل إلى القىء .. اضطراب جعل تعبير الفم ألما وجعل الحلم ظللا حول العينين وقالت في نفسها : « لقد جاء » ..

ولم تكن قادرة على أن تصل إلى أعماق ما بعد هذا فهي وإن كانت تنسج ما سأتها بنفسها مضرية على التفكير في النهاية فإنها تحس بنوع من اختيار الذنب .. وفي أعماق أعماقها فكرة من أحرق بيتا ليخفي حادث سرقة .. كأنما تريد مما تنسجه الآن أن تنسى به ما فات فضلا على أن « سمير » أهم « ورقة » بين كفيها تمسك بها وهي تلاعب القدر ..

وعندما كان باب المشغل يستقر على الأرض مقفلا والماكينات تبدو في سكوت الظلام مثل حيوانات صغيرة لا تعرق قد أجهدتها العمل فاستسلمت للنوم — في هذه اللحظة كان « سمير » و « درية » في عربة في طريقهما إلى البيت .. ولم تكن « درية » تقدر أنه خال فقد قال لها إن شيئا هاما بانتظارها هناك .. وعندما همت بالاعتراض على أنها لا تتحمل أن ترى بيتها الأول كان يدفعها نحو العربة .. ولم يكن يغيب عن ذهنها الذي لم تشأ أن تعمله احتمال خلو البيت من الناس .. لكن .. إنها حالة استعداد للخطأ تصاب بها النفوس المأزومة .. ونفسها المحبة أيضا نفسها الظمأى تشرب والعينان مغمضتان .. وتوقع النبوة يجعلنا نغمض العين .. بل حتى مجرد ذكرى سعيدة .. تنسدل الأجفان .. كأن الرؤية الذهنية هي العين الأولى للمسرات .

وإلى جانبها في العربة كانت أسنانه تلمع عندما يتسمم وكانت ترى وجهه في نور المصابيح أحيانا .. وعطرها يفوح في هذا المكان المفتوح فيملاً نفسه ..

وإلى جانبه لا تدري لماذا ذكرت الحاج يحيى .. الرجل الكبير القلب الذي يخزن لها أثاثها عنده في إحدى الحجرات .. لقد لقيها أمس البارح فقط وقال

لها وهو يضغط على كفها ضغطة اهتمام وسلام : « لا تتركي نفسك هكذا يا « درية » .. » فهمت قصده فهو يريد أن تتصالح أو تتزوج : « ثم إنك .. ها ها .. » وضحك ثم قطع ضحكته .. إنه يريد أن يخبرها بمعرفته بحملها : « والكنبة الكبيرة في طاقم الجلوس .. أخرجنا من بطنها توأمين سميين .. أنا وخالتي هند .. ها ها » وقطع ضحكته ..

وعند ذلك فتحت حقيبة يدها لتأخذ منديلها الصغير .. شبه دمعة .. ورائحة فل قديمة جدا وهي تقول في نفسها : « الفيران تأكل الأثاث المخزون وتتخذ من بطنه سكنا » ..

ولمس « سمير » يدها فعادت إليه .. كان على وشك أن يأمر العربة بالوقوف على بعد من الباب .. وأشار إليها أن تسبقه وفعلت ..

كان السلم ظلما .. صعدت متوارية في نفسها .. يشملها حلم .. لم تدر أنها حملت فوق طاقتها إلا الآن .. وهي الآن توازي النافذة ذات الزجاج الملون التي ألقت على قدميها ذات يوم بركة حمراء من الضوء .. ولحقها « سمير » .. أمسك ذراعها فأحست بما هو في انتظارها . البسطات طويلة صامتة .. وحديث عائلي تأتي حواشيه من شقة عليا كما يحمل الهواء رشاش الينبوع .. مفتاح يدور ومصباح يرشد إلى الطريق وليس هناك حديث .. وفي الحجرة التي التقت به فيها أول مرة شعرا معا وفجأة كأن شخصا ثالثا هو المسئول عن وجودهما في هذا المكان كأنما سيقا إليه .. همست بخوف شديد :

— ماذا فعلت؟! لا أستطيع أن ..

رد جادا وكأنها أخافته :

— فلنغادره إن شئت .. لكن إنهم ليسوا فى المدينة .. علينا أن نتكلم ..

إلى ..

كانت تنظر بخوف نحو الشباك المقفل الذى طالما أطلت منه على شقتها .. وعلى مرمى بصرها لو أنها فتحتة خشبة المسرح التى ذرفت عليها الدموع وأدت أفطع دور .. وحضرتها فى هذه اللحظة صورة لعينين راغبتين لزوج فى نصف وعيه يجعل من لغة الحسن لغة سباب وتأنيب .. ولم تلبث « درية » أن دخلت فى دوامة من الروائح .. بصل وبنزين وقطن طبى وعطر زيتى وفل قديم وعرق .. وضافت أنفاسها فبكت « هذا فوق الطاقة » ..

شعر « سمير » بالربةكة .. أحس أنه أخطأ .. كان همه أولا وقبل أى شىء أن يعيد السكون إلى نفسها .. أخذ مندبيلها من كفها وبدأ يمسح عينيها .. وعندما امتزج نفسها — بعد تنهد — بنفسه تصورا لإمكان وجود روح واحدة فى أجسام كثيرة .. وتذكر « حسن شيحة » ذات يوم وهو فى هذا المنزل حين قال له مداعبا : إنه كان هو وعم « خليل » والبقر والموقد وكلب الحراسة وسلّة الخبز والنبوت وعدة الشاي يمثلون عائلة يحب بعضها بعضا إلى درجة لا توصف ..

لكن بعض أفراد هذه العائلة يعبر عن الحب بالكلام وبعضها يعبر عنه بالعمل .. ثم انطلقت ضحكة من « حسن شيحة » ..

شعر « سمير » أنه وهى شىء واحد .. ليس له علاقة بما فات .. كأن « الماضى » يختفى عند الضرورة لكى يأخذ « الحاضر » دوره إذ هو يمثل الحياة الحية الطازجة قبل أن يولد « المستقبل » .. وعندما يلح الماضى بفضوله

ليزحزح الحاضر عن موقعه يكون الحاضر آنذاك قد أخذ حقه وأدى دوره وأصبح هو الآخر ماضيا ..

لا شيء في الحياة أقوى من لحظة الحاضر .. تلك التي عادت إلى « درية » فيها ابتسامتها وهي تعيد المنديل إلى حقيبة يدها .. ولمح « سمير » مشطها فخطقه ثم أمسكه يعبث به .. كان أحمر في لون اللهب .. فأخذ يمرر إبهامه على أسنانه ليحدث صوتا وهو ينظر إلى المشط ويقول :

— خطابك أخافنى ..

— لماذا ؟

— لأن فيه .. تقولين : « بأننى أحمل .. آ .. » ..

أشارت إليه بكفها وهي تنصب نصفها الأعلى جالسة .. كمن تمد قامتها أو تعالج في ظهرها ألما بهذه الحركة .. وعادت إلى فمها علامات البكاء والابتسام معا ثم برقت عيناها بدموع غزيرة ..

— ماذا بك يا « درية » ؟

— أنا لا أطلب من أحد شيئا .. « وتنهدت » هل تظن أننى أستسلمت حتى أصبح هذا عادة لى ؟ أبدا .. كل ما فى الأمر أننى ..

وأطرقت .. كانت تريد أن تقول إن غايتها أن تشعر أنها محسوبة على إنسان . وأضربت عن الكلام حتى دنا منها .. وهمس فى أذنها باسمها ثم جعل يعبث فى شعرها بمشطها فردت يده برفق ثم قالت له وهي تنظر نحو النافذة :

— يقولون إن الصراط المستقيم يقع هكذا بين الجنة والنار .. وهذا الممر

الذى يفصل البيتين هو الصراط .. لكن الجنة ..

— أين هي ؟

— هل من الممكن أن تتسلق أسوارها أو نعبر إليها بجواز مزور ..
على كل حال لا يهمنى أن تكون الآن الطفل أو تكون الرجل .. كل
ما يهمنى هو أن أقول لك إنك التقيت بعذراء يوم التقيت بى فى المرة
السابقة ..

بدت الدهشة عليه وهتف « عذراء » .. وجعل يمر بإبهامه شاردا على
أسنان المشط وهو ناظر نحو بيتها .. وفى هذه الوهلة رأت صورة جديدة
لأشياء تكرهها لكنها لا تكره أن تنظر إليها .. ومن خلال ابتسامتها التى تولد
خرجت ضحكة صغيرة :

— يجب أن تفهم ما يقال يا أستاذ « سمير » ..
هز رأسه وسارع يقول :

— فهمت .. فقد تبقى الروح عذراء حتى آخر العمر ..
أمسكت بمعصمه وهى جالسة جنبه على الكنبه .. وسألت بمجد ظاهر :
— من منا مكلف أن يعطى الآخر على حساب نفسه ؟ لا ترد .. فأنى
أخاف أن تكذب ولست أدرى لماذا أنا حريصة على أن أجعلك فى المواقف التى
تكون فيها صادقا .. ربما كنت خائفة على نفسى عن طريق خوفى عليك ..
فاحذر أن تعدنى بشيء لكن .. قل لى ..

همس :

— أقول لك فيما بعد .. تعالى إلى .. فأنى عاجز عن الحديث الآن .. تعالى

إلى ..



انى عاجز عن الحديث الآن ..

هو الآن يمشط لها شعرها بمشطها ليعيد إليه نظامه وهى مطرقة تفكر وهو يشعر بسعادة ممزوجة بالخوف .. وتمنى لو أن أمه وأباه كانا لا يعرفانها من قبل ؟ لكنه ما لبث أن جازف وقال :

— درية ..

— نعم ..

— كنت أحلم أن تلحق بى من المدينة فتاة أحبها لتعيش معى فى الريف حيث أفضل أن يكون عملى هناك .. هزت رأسها مستفهمة .. ثم سألت :

— وماذا أيضا ؟

— ستكونين أنت هذه الفتاة ..

ردت بدهشة بالغت فيها :

— أنا ؟

— نعم .. وماذا فى ذلك ؟ .. إننى أعرف .. أقصد .. إنه بعد أن .. يعنى عندما .. لا أدري ماذا أقول .. وضعت كفها على كتفه :

— من الممكن أن أقول أنا .. عندما أضع الطفل الذى فى بطنى تصبح الحياة أكثر سهولة ..

— أ .. أ .. الطفل ؟ !

أومأت برأسها إيجابا .. ثلاث مرات متلاحقات .. لم يكن على وجهها مبالاة كأنها بطريق غير واضح أحست بلذة الثأر لليلة كانت فيها ذليلة وجهها لوجه أمام رجل .. وها هى ذى الآن ترى أمامها رجلا خائفا ..

فى بيته ويبدو عليه الذعر .. وفوق رأسيهما على الحائط صورة لهذا الشاب نفسه على غاية من المرح والقوة .. وهبطت ظلال من التعاسة على وجه « سمير » جعلتها تشعر نحوه برثاء واستصغار .. وتذكرت ذلك الذى كان يمشى إلى جوارها فى المرة السابقة .. ولم تلبث أن شعرت بنفسها « مجردة » بين غمار الحوادث .. شعرت بكيانها وحدها .. وهى على الرغم من أنها حقيقة لا تخاف المستقبل كثيرا لأنها أهدرته فإنها تتلذذ الآن بتفحص الحاضر ..

همست تقول فى طمأنينة من ينهى خبرا مفروغا من أمره بلهجة مشوبة بالتهكم :

— آ .. الطفل .. عندما .. تريق ماء على أصيص لا زرع فيه فإن الحشائش تنبت .. طبيعة .. هل فى الطبيعة شئ غريب ؟

— أخذ يمرر إبهامه على أسنان المشط بحركة سريعة وهو يسأل شاردا ..
— لست أفهم قصدك ..

نظرت إلى الصورة على الحائط وهى مولية ظهرها إليه .. ثم وجهت خطابها إلى ذلك الوجه الباسم الشجاع النابض بالحياة والحب فى الصورة ..
— أنت .. وليس الشخص الذى ورائى .. أنت الذى سقيت الأصيص ..
قل له هذا .. فأنت شجاع ..

وضحكت فأحست كأنما فتح لها الضحك بابا من الاطمئنان والاندماج فى الدور ، وكأنما كان أيضا رد فعل لدموع أريقت أو برقية احتجاج موقوفة أرادت إرساها إلى غرفة زفافها القريبة التى يقف فيها الآن على أربع سرير من الحديد أسود القوائم .. ثم استطردت تقول للصورة :

— لقد كان شهبك تماما يوم رأيته ، لذلك أعجبني .. روحه تشبه روحك .. أمه قالت لى إنه يحلم بتغيير الدنيا « ووسوست بضحكة » ولذلك أضاف إلى سكانها واحدا .

أحس « سمير » أنه يذوب فماذا تعنى مهمته فى الحياة إن كان يريد تغييرها كما تقول الآن .. ودفاعا عن نفسه قدر أنه مغشوش وأن الحقيقة تعرفها « درية » وحدها ، لذلك أحس بأن كل ميزة فيه قد خسبت كما تحبو النار فى انطفاء سريع .. حتى بريق عينيه .. ولما ألحت « درية » فى ترديد بصرها بينه وبين الصورة أخذ ينظر إلى الصورة بلا إرادة ، فشعر لوقت طويل أنها الإنسان غيره .. لماذا أحس أنه جرد من كل أسلحته .. وأطرق كجندى من فلول يمرر إبهامه على المشط فى تكاسل .. ولم تدر لماذا أحست نحوه بعطف فابتسمت له : « طفل يخاف من طفل » وسحبت مشطها من يده برفق شديد كطفل نام ولعبته فى حضنه .. أمه لا تريد أن توقظه .. لكنه .. استيقظ .. رد يده إليه ولم يعطها ما تطلب وكأثما عادت إليه قوة كانت غائبة عنه فلم ير الاعتبار الأول فى ميزان الرجولة أنها كانت فى أحضانه فهناك الآن اعتبارات أقوى .. حملت إليها وقال جادا :

— هل تظنين أنك أخفنتى بما تقولين ؟

— نعم .. لأن .. الحب شىء مخيف ..

أطرق وتذكر الكره — الحب والكره طرفا الكماشة الأزلية التى يقع بينهما كل قلب .. يتبارزان .. ويلد كل منهما الآخر ويتنكر كل منهما فى ثياب أخيه ويقتل الكره باسم الحب .. ويقتل الحب باسم الكره .. وبعد وقوع الحادثة

— ١٨٣ —

يكشف القاتل عن شخصيته .. ورفع إليها رأسها وقال :

— لكننى لا أخاف من الحب ..

سألت ببرود وهى تهز ساقتها :

— الذى عثرت عليه أو الذى تبحث عنه ؟!

— ...

ثم لحت شيئا قريبا على إحدى المناضد .. لقفته بسرعة ووضعت على عينيه
هو وهى تبتسم .. كان نظارته وقالت له :

— اختبئ كما سبق لك .. وهات المشط فأنى أريد أن أنصرف فقد تأخرت

.. طفل ليس مشكلة .. خصوصا إذا كان أبوه طفلا ..

واتجهت إلى الباب وهى تلقى نظرة إلى صورته المعلقة ثم نظرة إلى وجهه
الكأى فى لون التراب .. أمسك زندها يمنعها عن الخروج فهمست وعيناها
تنظران إلى لا شيء ..

— إذا كنت قهرتنى لأدخل فيمكن أن تقهرنى لأبقى .. دعنى ..

فتخاذل ..

* * *

كانت وهى تهبط السلم تشعر بغربة من لفظه وطنه لعلها كانت متوهمة أن
ترى شيئا ليس فى تقديرها .. ثم إنها فى قرارة نفسها تحس كأنما لو طلب منها
حلا لأوحت له بالحل ..

ولاح لها ميدان السجن خاليا . ذوايب أشجاره تتمايل كأشباح سكرى ..
شهقت بالبكاء . ها هى ذى قد اقترفت بعد أن عوقبت مقدما .. ها هى ذى
الآن مثل أم وجدت قبر ابنها . وسارت فى الميدان نصف مغمضة ورمت

بنفسها في أول عربة قابلتها عند طرفه وجلست في ظلامها تستمع إلى قعقة العجلات ووقع السياط . وخيل إليها في جلستها أن الشوط الأول من مأساتها قد انتهى بإحكام وعليها منذ الصباح التالي أن تدير ماكنتها منتظرة الخطوة التالية ..

أما « سمير » فقد سافر جريح النفس على غير ما كان يتوقع بعد أن التقط للحب صورة غريبة عليه .. وأهم ما في الصورة أن كلا الطرفين يحس أنه ضحية خداع .. والحب إذا رسم خطاه لم يعد حبا .. لكنه وهو في القاهرة جعل يتصور المأساة من جديد .. وسأل نفسه عما عسى أن يفعل .. هذا الذي حلهم بأنه سيغير الدنيا عاجز تمام العجز عن تغيير واجهة داره .. تغيير ما تحت قدميه .. فكاد يوقن — وعقرب الثواني يجري محموما — أن ما يدور برأسه إن هو إلا حلم شائع يراود كل شاب ..

وسمع تصفيقا في الحارة وبوقا وهتافا وصياح أولاد : « هذا هو الحاوى .. ألعابه كانت تسحرني قديما .. شق بطن ابنه ولفقها بعد أن سال منه الدم .. لكن ذلك لا يلذ لي الآن إلا في محاولة أن أكشف عن الخدعة .. أما العمل ذاته فقد كبرت فأصبحت لا أؤمن به » ..

وارتفع من بعيد صوت تقليدى يقول : « جلا جلا » فعاد « سمير » إلى المسألة بعد أن حاد عنها : « هل يؤمن هذا الرجل بما يفعل .. كارثة » .. يحاول من لا يؤمن بشيء أن يدفعه إلى قلوب الناس .. « أعجز من طفل يقذف بالكرة إلى أعلى سلة .. » وتبسم « وذلك الحاوى الذى يرى الدم ويصرخ مستغيثا بقوة أولياء الله أن يعيدوا الحياة إلى ابنه .. إنه يشد انتباه الأطفال

وفضول الكبار .. » .. ثم استطرد يفكر وهو يشعل سيجارته بالعدسة من أشعة الشمس واقفا إلى جوار النافذة .

« لو تصورنا أن هذا الرجل يؤمن بإيماننا قلبيا بما يفعل فهل يصل إلى حدود المعجزات ؟! » ..

كان يسأل نفسه هذا السؤال والبقعة الماسية من الأشعة متجمعة على طرف السيجارة .. وانبعث الدخان . خيطان رقيقان رشيقان يحملان رائحة التبغ .. وتذكر ما يعانيه من أرق منذ الليلة التي قضاه في طنطا .. وتلك الكلمات التي وجهتها « درية » إلى صورته وهو حاضر .. كادت الغيرة تأكله عندما تخيل أن « صورة منه » دبت فيها الحياة وصارت أبرع منه حتى نالت اهتمام من قال لها إنه أحبها بعد الفراغ من قصة حب .. لكنه فكر ثم تبسم .. وحضرته صورة لأدوات فعالة بسيطة توجد في كل يد .. ليست حكر الشخص ولا أمه .. بعضها على قارعة الطريق وبعضها على يد الأطفال : « مغزل » .. طالما رأى أطفالا وصبياننا من الفلاحين يغزلون به القطن طول الموسم ليصنعوا من خيوطه أحزمة أو مقاليع .. ثم .. « رداء » على كل ريفي وكل فقير .. ثم .. « عنز » يرتفع صوته بين الحقول في كل أرض .. كائنا لا يشعر به إنسان ! حتى مقاييس الجمال ربما فرت منه ..

وفكر « سمير » : « لكن الأدوات في يد رجل مثل غاندى .. غيرت الدنيا » ..

هز رأسه في يأس : « فمن داخل الرجل يقع الخلود لذكرى هذه الأشياء » ..

(البيت الصامت)

وارتفع التصفيق والتهليل وتلاشت فيها كلمات « جلا جلا » وشعر
« سمير » أنه الآن مثل واقف في مفترق طرق إذا أراد أن يؤثر في مجتمعه عن
طريق شخصه لا عن طريق وظيفته .. فالوظيفة ليست بيئة طبيعية للرجل فقد
يعيش غريبا عنها ..

رأى نفسه في يوم يحمل طفلا .. ورأى نفسه مرة أخرى وهو يدفنه
ومرة ثالثة وهو يبحث عن طفل ضال ومعه رجل ينادى : « يا أولاد
الحلال » ..

واستيقظ خائفا .. وتمنى لو أن أمه وأباه لا يعرفانها .. إذن لرحل بها
إلى أى مكان .. ثم تمنى لو أنها كتبت إليه .. لكن .. كل شيء صامت ..
إنه يشعر بالصمت يخيم عليه جدا .. حتى الأفكار تدور في رأسه حائرة
ضعيفة مثل الفقاقيع .. نسمة لا لمسة تطفئها .. والقاهرة صامتة ..
وضحكات زملائه في المسكن كأنها فم بفتح ولا يخرج صوتا .. ليس هناك
حس للمرح .. ثم تمنى لو أنه سمع عن وفاتها بسبب حادثة .. حزن طويل
أو قصير .. وينقضى الأمر .. لكنه عاد فتذكر أنه بذلك ظلمها ثم سأل
نفسه : « ألم يكن لها إرادة ؟ » .. وأجاب عن سؤاله : إنها لم تلمسه
على أنه استدرجها لكنها لامته على أنه .. لم يتحمل بينه وبين نفسه نتيجة
ذلك .. ثم إنها لم تهدده .. لم تفعل شيئا من هذا أبدا .. بل خرجت منظوية
وإن لمعت عيناها ببريق غامض ..

وتذكر إرادتها .. شعر بأن الإرادة شيء قوى .. مخيف .. حتى
ولو كان في حشرة .. أما هو فما موقفه ؟! تلذذ ثم مضى ؟! وكان يشعر
بالحب وقتئذ .. كأنه نسى أن الرغبة هي الصورة الإيجابية الخادعة لما

يسمى الحب .. وهل رغبة القط في الفأر وهى من أشهر الرغبات تسمى
حبا ..

وكل من لاقى « سمير » يقول له : « لا بأس عليك » .. وكذلك أخذت
نوافذ المسرات الشخصية تقفل في وجهه واحدة بعد واحدة .. إنه في
خوف .. نوع غير الذى عانته « درية » قبلا .. أهم مظاهره أنه لن يستطيع
أن يخدع مثل ما يخدع هذا الحاوى .. وعندئذ شعر أن شيئا هاما ينقصه .. هو
أن ترى فيه الفروع الصغيرة ذات الورق الأخضر التى تُكوّن مجتمعة شجرة
الفضائل ، فمع تمارين تقوية الفخذين التى يمارسها . والزفير والشهيق أيضا
يمكن أن تكون أشياء أخرى .. وبدلا من أن يكون مثل ابن الحاوى الذى
يشارك في الخدع ويمثل الموتى بمهارة ثعلب — ممكن أن يكون « مغزلا ،
أو حتى عنزا » ..

وبعث أبوه إليه يقول له : « إننا نود أن نراك ولو أن الامتحان قريب ، لكنه
لم يرد عليهم .. وأخذت الأم نوبة شديدة من المخاوف فأوصت « حسن
شيخة » أن يمر عليه إذا ما كان في القاهرة ..

وعندما التقيا وسأله الرجل عن سبب سوء صحته عزا الشاب ذلك إلى
مجهود الامتحانات .. ثم تلطف في السؤال عن « درية » فقال له « حسن
شيخة » :

— عما قريب ستعلم عنها خبرا سارا ..

— ستزوج ؟! مثلا ..

— لا .. بل هو الخطوة الأولى للزواج ..

— ومتى تنتهى هذه الخطوة ؟!

ضحك « حسن شيحة » مخرجا :

— علم ذلك عند الله ..

— وهل هي سعيدة ؟!

— طبعى ..

هز رأسه مسلما بكل الأفكار .. وفي حين أن « درية » كانت تنتظر منه خطابا أو لقاء أو كلمة وهو في حاله تلك قد فقد ثقته في نفسه .. وكلما تذكر قوى أبيه رأى فيها شيئا سخيئا .. غير أنه ما لبث أن حسده إذ رآه يمثل وجهها واحدا للشخصية .. سجان في كل ما يفعل .. لا يمنع الحرية عن النزلاء بمقتضى اللوائح بل بطبيعته الشخصية .. كأنما نقش على سلاحه القانون ..

وتصوره « سمير » أخصائيا اجتماعيا .. يملك من خصائص وظيفته القديمة .. عندئذ فإن الأمر لن يختلف .. سينبع من داخله الإصلاح كما نبع الإفساد من داخله .. المهم أن يكون صادقا .. « أليس ذلك خيرا من اضطراب الألوان ؟ » ..

وفي غمار الامتحانات كانت مشكلات « سمير » النفسية في الصف الثاني من اهتماماته ..

أما « درية » فقد كان كل من حولها في فترة انتظار .. حتى تضع حملها وهي شخصيا ترى الآن أن الحياة لا يمكن أن تعاش هكذا بهذه الطريقة ، فمنذ ليلة زفافها وهي ترى أن الغش كان هو الطريق الوحيد للعيش .. وعاشت في فترة تأنيب « من الضمير ؟ ! » على أنها لم تغش ..

بل وتبادلت هى وأمها هذا التأنيب كأغما الناس قد أخذوا يتواصون بالغش .. ثم قضت فى بيت زوجها فترة كانت مبنية على النفاق أو الخضوع أو المداراة .. أوضاع أشاعها الناس لكى يعيشوا .. وعندما رجحت كفتها انقضت عليه وهجرت بيته وهى ترفع راية الغش .. وكملت المأساة بقاء « سمير » الذى غش ويرفض أن يغشه الناس ..

ونظرت إلى بطنها المكور وتبسمت : « شهادة ميلاد يجب أن تحتتمها الأم بدل مكتب الصحة بخاتم الصديق لا خاتم الدولة » .. وأدارت الماكينة فأزت .. تطرز عصافير أفواها مفتوحة كأنها تزقزق .. ثم تذكرت شيئاً قررت أن تذهب وتراه فى فترة الغداء كما يحسن الأسرى إلى معسكر التعذيب ..

ذهبت إلى السيدة « زينات » بأى سبب .. لأنها أن تتألم .. كنموذج من الناس يشعر أن الناس يحرقونه ببطء فهو يساعد فى إحراق نفسه ليتخلص .. ويشعر أن العذاب من داخله هو فيه تدلل الصوفى أما عذاب الناس فيه فإنه يثير أساه ..

ومع واحد من أطفال السيدة « زينات » أبدت رغبة فى أن تلقى نظرة من أعلى على مدينة طنطا .. وأخذت تصعد السلم والطفل وراءها يثرثر حتى إذا ما وصلت إلى الطابق الأخير حيث بدأت مأساتها نظرت إلى الباب الموصد وحملت فى بطاقة مثبتة عليه تحمل اسم أحد ضباط الشرطة فتبسمت ..

وبدت لها القباب والسطوح والغسيل والنوافذ التى لعبت فى حياتها دوراً كذكريات حديثة كأن لم يمض على مرورها عام .. فالملابس الداخلية

للسيدات على هذا البلكون والسريـر فى حجرة النوم وتلك المرأة التى انخت
فتكورت أردافها وهذا الفناء — كل هذا كان الجرعة المجهولة التى شربها من
سقاها الذل . ولم تستطع أن تحمل راية الغش فتعذبت ..
خيل إليها قبل أن تهبط من أعلى أن تلك المدينة الملفوفة فى غلالة ذهبية غريبة
عنها .. هى وافدة إليها أو راحلة منها .. الضجيج فى آخر ذبذباته فى الطبقات
العليا .. والطير والحمام .. وذوائب النخل وهى تحت مستوى النظر ..
ورائحة الندى التى تسبق الشتاء — كل هذا ألقى إلى قلبها بكلمة لم تفهم
ترجمتها بعد ..

وفى المساء كان عندها « حسن شيخة » فى بيت أبيها يحمل إليهم سبتا
من الزبد وقصفا من الدجاج .. تشعر بأنه حزين .. حزنه من ذلك
الذى يوحى بأنه يفكر .. ولكل نفس مشكلة .. لكنه كان بفطرته
قادرا على أن يجعل من هزائمه مادة لإضحاك نفسه .. وبهذا تفقد الأحزان
خطورتها ..

جعل يحدثها عن نعمة الله عليه وهو شارد .. كفاحه مثل كفاح الطير حين
تبنى عشها والريـح تهب .. تفرش لنفسها ريشها .. هكذا جمع « حسن
شيخة » كل ما يملك .. وهو ينظر إلى الحرام والحلال من ثقب الإبرة الذى
يسيل منه رزقه إليه .. لذلك فهو يرى أن ماله كله حلال لا غبار عليه والله
أعلم ..

— تصوـرى يا ست .. رجل يرزقه الله من ثقب أبرة .. طريق معرض
للاتسداد حتى بالرزق نفسه لو زاد مقداره .. « وضحك » فأجابت
مهمومة :

— نعم الله لا تحصي .. لو عرفت ..

كانت « درية » وهى تقول هذا تتذكر ما تعانیه .. فتاة تمنى أن يصدقها الناس .. لم تر على وجه رجل منهم انطباعات الطمأنينة المشهورة المنيرة التى تلقى بها على الوجوه كلمة الثقة .. وضمن هؤلاء الناس أمها وأبوها و « سمير » إلا فى ساعات قلائل .. ولذلك فإن الاطمئنان البليد حتى على وجوه التماسيح كان يعجبها ، وكان ضروريا أن تبحث عن الشرف بطريق غير شريف فلجأت أخيرا إلى الغش الذى تلاومت عليه هى وأمها .. وهى الآن تحس أن الجنين امتداد سيئ للماضى الذى تكرهه .. وكثير من الحب الذى عجز عن قتله الرجال والناس قتله جنين .. قال « حسن شيعة » ورائحة النعناع تفوح من الشاى الذى يشربه :

— لو طاوعتنى يا ست « درية » لعشنا أعظم عيشة ١٩

رفعت حاجبيها وتلفتت فى الحجرة الخالية ووطنت نفسها على أن تسمع شيئا ظريفا .. هزت رأسها مستفهمة فقال لها وهو يخافت بصوته :

— كل مالى وجهدى وعرقى سيكون لنا ..

— وكيف ..

— محل جديد وماكينات أشتريها لك .. عليك العمل والإدارة وعلى الباقي ..

— أنت تعيش فى دفتر الحساب يا سيد « حسن » ..

فأشار بيده وكأنه لم يسمع وتلونت نبراته حتى شعرت « درية » أنه ارتفع عن نفسه :

— الولد « وأشار إلى بطنها » يأخذه أبوه .. وأنت تأخذين ما تشائين من

الدنيا ..

وأَسبل أهدابه .. بدا في لحظه من تلك اللحظات التى تكون النفس الإنسانية فيها مستعدة للتلبية .. فى حالة حركة موقوفة بالنسبة لمن تحبهم .. فلو أنها طلبت منه — وهو يتهد الآن — أن يفعل بسلامة ما فعله ذلك الشاب فى أخته حبيبة الصياد لاستجاب .. أو لو طلبت منه أن يتبنى من فى بطنها لقبل .. أو لو طلبت منه ما جمعه طول عمره من ثقب الإبرة الإلهى لأعطى .. أحست أن قلبها يخفق .. نظرت إليه نظره لم تخل من عطف .. فلو أنها كانت معه وهو فى آخر لحظات حياته .. شعرت أنها تريد أن تستخفى من نفسها كما فعل « سمير » ذات ليلة .. لكن ذلك الشعور لم يلبث سوى وهلة وانصرف .. مضى مخذولا .. فقد تشبعت .. حتى حوّلها إحساسها إلى فتاة جديدة تكاد تكون غريبة عنها .. وكما نرى وجوهنا فى المرايا أحيانا فنحاول أن نعيدها إلى الصورة التى ألفناها فإننا كذلك نرى نفوسنا كذلك .. وفى هذا الوضع كانت « درية » .. وفجأة صممت على شىء .. على أن تخاطر فتعز نفسها وتذل الآخرين ولو من وجهة نظرها هى .. وربما استطاعت أن تسترد نفسها .. حقيقة إن استرداد النفس أشق ما يعمل .. لكن الأسر لا يدوم إذ ليس هو الصورة الطبيعية للحياة وإلا لعشنا نرضع أمهاتنا ..

— يا سيد حسن ..

بهره النداء .. فقد أضافت « درية » بلهجتها إلى اسم « حسن شيخة » شيئا جديدا .. أسماءنا التى نسمعها باستمرار قد تلحظها آذاننا وهى أكثر بهجة ..



رجل يرزقه الله من ثقب ابرة .

وشعر « حسن شيحة » كأنما رأى صورة جديدة له في ملابس فارس شاب .. كاد يتوه عن نفسه .. إذ عاش يرى طيف الإله — مخدوعا — من خلال رقصات دخان البخور عند الصنم .. الحب .. ذلك الذى لم يستطع أن يجاهر به نفسه .. خبأه فى صدره كأنه غريب عنه .. كأنه صدر رجل آخر .. وربما مال « حسن شيحة » لـ « سمير » لأنه أحبها .. ربما كان هذا غاية ما يصل إليه الناس من « الإخلاص » أو الحرمان أو الغفلة ..

وهمس « حسن شيحة » رادا :

— نعم يا ستى ..

— لى خدمة عندك ربما كانت أهم ما أطلبه منك ..

— أمرك ..

— أعرف أنك تتردد كثيرا على ..

— نعم نعم ..

ورد باهتمام وخوف وإقدام ربما لم يكن من طبعه .. فقالت :

— غدا الجمعة .. أليس كذلك ؟ سأنصرف فى وقت مبكر من عملى

والتقى بك هناك ..

والليل يخيم على المدينة .. وفى جو الشارع الذى يعبرانه فى العربة رائحة فواكه الشتاء مع زوبعة تدور بأوراق من كل نوع .. والساعة فى حدود العاشرة .. وفى السماء سحب يمسك دموعه .. بانتظار لمسة من الطبيعة ليكى .. وفى العربة « درية » و « حسن شيحة » كل فى

ناحيته تقريبا .. وقع حوافر الحصان مثل نقرات الدف المعدن واستسلمت
« درية » لعلها .. حتى أفاقت على صوت « حسن شيحة » وهو يتنحنج ثم
يقول :

— خايف ..

ضحكت في عدم مبالة كأنها تشجعه .. ثم سأله :

— هل الخطابات معك ؟

— نعم .. معي ..

— هل أنت محتاج إلى أن أقول لك ما قلته من قبل ؟

هز رأسه نفيا .. وأحست « درية » أنه يغالب بكاء .. عندئذ مدت
كفها وأمسكت كفه ودنت قليلا منه ثم مدت يدها الأخرى وجعلت كفه
بين كفها ثم ربتها وخلتها .. في هذه اللحظة لم يتمن حسن شيحة أكثر
مما حدث .. كأن النفس الإنسانية في بعض الأحيان تحدد موقفها بالضبط
فلا تخطيء بصرف النظر عن ماضيها أو حاضرها .. وعند نهاية شارع
معين أمرت العربة بالوقوف ونزل الاثنان ولم يلبثا أن دلفا إلى بيت
لا يحمل إلا لافتة واحدة لكن ليس فيه أنوار تشع في الخارج .. ولم يك
السلم واضح المدخل فأشعل هو عود ثقاب رأت « درية » على نوره
المهتز أشياء مكدسة تحت السلم كأنها باللات من قماش وبينها تمثال
رومي لامرأة رقد مكسورا وزهرية كبيرة من الرخام إلى جواره .. مثل بقايا
قصر قديم ..

ولم يسمحا لآذانهما أن تسمع وقع أقدامهما .. كانا يخالسان الخطو .

حتى إذا ما وصلا إلى الدور الأول وفيه شقة واحدة نقر « حسن شيحة

بابها نقرات أحست « درية » أنها تحمل كلمة السر .. ولم يسمع في الداخل وقع خطوات ثم ما لبث الباب أن انفتح كأنما من تلقاء نفسه .

ولاح في الظلام النسبي — إذ كان هناك مصباح داخلي — لـ « درية » وجه شابة في الثلاثين .. أول شيء جذب نظرها فيها أنها ذات رأس كبير جدا مما جعل « درية » ترجع إنها وضعت في ولادة عسرة .. وساعدها قويان وصدرها نام كثيرا ..

وفي الداخل صوت وابلور جاز .. وروائح من تلك التي يغلب انتشارها في المستشفيات .. وأومأت الشابة برأسها الكبير إليهما فدخلتا إلى إحدى الحجرات وأقفلت الباب بعناية ..

أصوات معدنية تبعث من الحجرة الداخلة وحركة سريعة دائبة من الشابة .. وفي النور غير الزاهي نظرت « درية » إلى « حسن شيحة » وقالت وهي تبتسم مغالبة دمعها :

— من كان يظن .. يا سيد حسن .. أن وجهك ربما يكون آخر وجه تقع عليه عيني ١٩

انكب على يديها لثما وهو يكي وهي تستردهما منه ثم رأت أنه من التعاطف الضروري أن تدعه يقبل يدها كما يشاء ..

— لا تقولي هذا .. إنني خائف .. لكنها ذات مهارة .. لم يحدث أبدا منها حادث سيئ .. إنها تساعد الطبيب في عملياته دائما .. وهذه الأشياء تعمل من ورائه .. سيسترنا الله .. ليتني أقوم بذلك بدلا منك .. آه يا ستي ..

ودخلت الشابة ذات الرأس الكبير على آهاتها ونادتها بعينها وإشارة من يدها ورأسها : « تعالى » ونهضت « درية » .. ولمس « حسن شيحة » شعرها وخدعا مربتا عليها قبل ان تخرج ثم بقى حيث هو :
هو .. كان يصلى .. جاثيا رافعا يديه إلى السماء فى غير خجل ..
وهى .. كانت تكتم أنيها وتخايل لها فى نور الحجرة قطع من الظلام كبيرة فى حجم الفيل .. تغدو وتروح .. والسرير فى دوامة .. وفجأة بدأ سمعها يثقل ..
طنين ثم شىء ثقيل له قوام مثل الرصاص الذائب يتسرب إلى قنوات الأذن ..
لكن .. قبلها .. كان هناك تصفيق كأنه صادر من مجموعة متحلقة حول نار .. مع رائحة بصل وطوب وأسمنت ورطوبة ومنظر الجلايب فى لون حجر الجير :

— ولدى .. والادى .. ولدى » ..

وبعدها جرى الرصاص الذائب فى قنوات الأذن واستتب الأمر بالنسبة إليها .. أصبح عالمها ذا تعادل غريب .. حسبة كبيرة أو متوسطة أو صغيرة طرح منا حسبة قدرها تماما .. ليكون الناتج « صفرا » ..
وجست الشابة نبضها بخوف .. لكنها لم تفقد قدرتها المدربة على تناول الأمر بحكمة فكل شىء يرسم ومتفق عليه مع الأطراف الثلاثة ..
هو هناك يصلى .. يشعر الآن أنه يملكها ومن أجلها يتطفل على الله ولم يخطر بباله طوال ساعات المخاوف شىء إلا سلامتها هى ..
والشابة واقفة تنعش قلبها بشىء ما .. وتذلك لها يديها ..
وعاد الغناء إلى « درية » .. جفت قنوات الأذن من الرصاص الذائب وعاد إليها الصوت : « ولدى .. والادى .. ولدى .. » ..

وانتفضت « درية » وفتحت عينيها .. رأت الرأس الكبير للفتاة المأخوذة فتذكرت عسر الولادة .. واغتصبت ابتسامة .. ثم سألت عن « حسن شيحة » ذلك الذي نودى بهمس فدخل مهرولا .. قلبه يسبق خطواته كعصا المكفوف .. وجلس ثم مال بث أن نزل ليحضر عربة .. بعد أن تم كل شيء .. في البيت لم تعجب الأم فقد قالت لها بنتها منذ يومين أن الجنين في وضع غير طبيعي وأنه معرض للسقوط وأخبرتها أنها فوجئت بنزيف وليس هناك أكثر من ذلك ..

ونزل « حسن شيحة » والخطابات في جيبه .. وبات في طنطا .. يحملق في الغلافين اللذين يحملان الاسم والعنوان وطابع البريد ويتمنى ألا يكتب لهما السفر أبدا بل تمزقهما « درية » بعد أن تنجو .. وطالما تمنى أن يعرف ما بداخلهما .. لكنه نذر أن يشعل فيهما النار بيده ..

وخلال اليومين اللذين لم تذهب فيهما « درية » إلى عملها بعد الإجهاض كانت تمسك من نافذة غرفتها تلك النسمات التي عرفتها على سطح السيدة « زينات » يوم كانت المدينة أمام عينيها ملفوفة في الغلالة الذهبية .. وبطريقة مكوك الماكينة التي أدارتها في مشغل الزهور كانت تطفو في حياتها وتغوص كل يوم عدة مرات .. لكنها لم تكن تحس بألم ولا نقمة .. كنتفس تطهرت بالألم فلم تعد تحمل حقدا ..

لكن النزيف عاودها بغزارة .. ووجدت أمها في آخر الأمر تحت وسادتها ورقة كتبت عليها « درية » فيها بخط كبير .. « أنا التي أجهضت نفسي فلم أكن أحب أن أحمل من أى رجل » ..

رجع « حسن شيحة » مساء اليوم نفسه من أمام بيتها مذعورا حين رأى معالماً موطناً .. يمشى وقد وضع يده على جبينه كأنما يخاف أن يسقط منه شيء ..

وفي أول صندوق خطابات ألقى بالخطابين .. ثم نفّض يديه كأنما يعلن للجهول أن مهمته قد انتهت .. وأطرق باكياً ومضى .. ليأخذ أول قطار يخرج به من المدينة ..

الخطاب الأول كان لزوجها على البيت القديم تقول له فيه ما يعني أنها وقد تطهرت من آثار الرجال تؤكد له — وهي خارج الدنيا — أنها كانت عذراء وكانت صادقة في قصتها الأخيرة وأنها لا تريد أن تسبب له تأنيب ضمير .. وأنها سامحته .. وكذلك سامحت ذلك الشاب الذي حكّت له عنه وربما تصوّره الآن في فائلة وسروال طويل وحوله موقد وعدة شاي وخبز وبصل وكل ما يهيم هو أن يعرف سلامة أنه ليس كل فتاة تحمل كلمة السر تستحق الدخول ، وليس كل فتاة لا تحملها تستحق الطرد .. وقالت له أخيراً السبب غير واضح : اسق أصيص الصبار ..

والخطاب الثاني كان لـ « سمير » .. لم تبث فيه حبا ولا لوما ولا عتاباً بل قالت ما معناه : إنها بعد أن تطهرت من آثار الرجال تؤكد له — وهي خارج الدنيا — أنها غير ناقمة عليه وإن كان هو المسئول حقيقة عن كل ما حدث ..

وذكرته بما قالته في اللقاء الأخير .. بحكاية الأصيل الخالي من الزرع والماء .. وأنه يمكن إن أثرت فيه مأساتها أن تجعل منه شاباً جديراً بوظيفة أخصائي اجتماعي .. فقد ينفعه الألم إن تألم .. وإلا فخير له أن يستأنف نشاطه كرئيس

— ٢٠٠ —

قديم لفرقة التمثيل فى المدرسة الثانوية سابقا .. ثم تقول له
أخيرا : وانظر دائما إلى ذلك الطائر الرمادى ذى الأجنحة الحجرية الذى يريد
أن يطير ..

* * *

كان فى جيب « حسن شيحة » الذى وضع الخطابين فيه زجاجة من العطر
الزيتى المألوف عنه .. حدث أن ألقى هذه الزجاجة بيقعتين كبيرتين من
الزيت المعطر على كل من الخطابين .. ثم ألقى بهما « حسن شيحة » فى البريد
.. وعندما فتحهما صاحباهما ملأت أنف كل منهما هذه الرائحة الزيتية
وامتزجت ذكراها بذكرى الحوادث عندهما .. لذلك فإن رائحة المأساة ظلت
تعاودهما بانتظام كأنما كانت هذه رمزا لتلك .. باستمرار ..
القاهرة فى سنة ١٩٦٦ .

« تمت بحمد الله »

رقم الايداع ٢٠٢٦

الترقيم الدولى — ٥ — ٣١٦٢٠٩ — ٩٧٧

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه